محمد عز الدين توفيق

الخشوع في الصلاة

الطبعة الرابعة للكتاب
الطبعة الأولى للناشر
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

الخشـوع في الصـلاة



ملتزم التوزيع



دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ ش القصر العينى - الدور الثانى/شقة ٤
تليفون وفاكس : ٣٥٥١١٠٥
ص.ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨١٧٨ - برقيا توزيعكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له. واشهد أن محمدا عبده ورسوله. . وبعد :

فلا تخفى على مسلم أهمية هذا الموضوع، والحاجة الماسة إلى التذكير به وبما يعين عليه، فإذا كانت مشكلة المسلمين أن الكثيرين منهم لا يصلون، فإن مشكلة المصلين منهم، أنهم لا يجدون في صلاتهم الخشوع المطلوب.

لقد أصبحت صلاتنا ـ في أكثر الاحيان ـ تصديقا لما أخبر عنه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان عندما قال : «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ورُبَّ مصل لاخير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعا» .

وليس الخشوع خاصا بالصلاة وحدها، بل هو شعبة من شعب الايمان ومقام من مقاماته، وهو في أصله اللغوي يعني السكون، قال

١) تهذيب مدارج السالكين هذبه عبد المنعم صالح ص ٢٧٦ ط وزارة الأوقاف في الامارات.

الله تعالى : «وترى الارض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت»[٢] ، أي هامدة ساكنة لم تتفاعل فيها عمليات الإنبات.

وقال سبحانه : «وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلا همسا»[٣] أي سكنت وخفضت.

وقال سبحانه : «وجوه يومئذ خاشعة»[٤] أي خاضعة مطرقة.

وقال سبحانه : «أبصارها خاشعة»[٥] أي خافضة للطرف.

وهذه الآيات الثلاثة الأخيرة نسبت الخشوع للرأس والصوت والبصر، وهي الاعضاء الثلاثة الظاهرة التي يظهر فيها الخشوع عند الانسان.

وهو في معناه الاصطلاحي عبودية من عبوديات القلب وحالة من حالاته الايمانية يلتئم من «التعظيم والمحبة والذل والانكسار، ويكون ذلك بالاستسلام للحكم الديني فلا تعارضه برأي أو شهوة، وللحكم القدري فلا تعارضه بالتسخط والاعتراض ويشمل الخشوع اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب. . . .

«وتظهر ثمرة الخشوع في القلب إذا طالعتَ عيوب نفسك وأعمالك ونقائصها من الكبر والعجب والرياء وضعف الصدق وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني، وعدم

٢) سورة فصلت آية ٣٩.
٣) سورة طه آية ١٠٨.
٤) سورة الغاشية آية ٢.
٥) سورة النازعات آية ٩.

إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك وغير ذلك من عيوب النفس ومفسدات الأعمال»[6].

والخشوع وإن كان حالا يجده العبد في قلبه، إلا أن أبرز موطن يظهر فيه، عند أداء العبادات، ولهذا ورد ذكره في كتاب الله مطلقا غير مقيد بعبادة وورد ذكره مقرونا بعبادات مختلفة.

فمن الآيات الأولى قوله تعالى : «إن المسلمين والمسلمات والمومنين والمومنات. . . إلى قوله : والخاشعين والخاشعات إلى قوله : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما»[7].

وقوله سبحانه : «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين»[8].

ومن الآيات الثانية قوله عز وجل : «قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. . .»[9].

«الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله»[10].

«وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق»[11].

---

٦) مدارج السالكين لابن القيم جـ١ ص ٥٢١. دار التراث العربي
٧) الأحزاب آية ٣٥.
٨) الأنبياء آية ٩٠.
٩) المومنون آية ١ و٢.
١٠) الزمر آية ٢٣.
١١) المائدة آية ٨٣.

وكما مدح الكتاب والسنة الخشوع، ذم ما يقابله من الغلظة والقسوة، قال الله تعالى: «فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله»[12].

وعن زيد بن أرقم مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع وعين لاتدمع، ودعوة لا يستجاب لها»[13].

لقد غاب من صلاتنا هذا الخشوع، وأصبحنا نقول ما قاله أحد الصالحين، وقد تلا قوله تعالى: «إذا تتلى عليهم آيات الرحمٰن خروا سجدا وبكيا»[14]. فسجد ثم رفع وقال: هذا السجود فأين البكاء ؟.

لم تعد صلاتنا صلاة المحبين العارفين الذين تَقَرُّ أعينهم بالصلاة ويجدون فيها راحتهم، ولما يئسنا من إدراك هذه المنزلة رضينا بصلاتنا كما هي، وصرنا نصلي كيفما اتفق لا نبالي.

والمومن إذا قرت عينه بشيء وارتاح إليه قلبه، شق عليه مفارقته. ونحن بالعكس نجد الصلاة ثقيلة على نفوسنا فصرنا ننتقص منها كماً وكيفاً فنختزل النوافل ونسرع في الفرائض. وأدى ذلك الى التذمر المستمر وصارت حلقة مفرغة، فلا صلاتنا تتحسن ولا ضميرنا يرتاح.

وحتى نخرج من هذا الصراع الداخلي لابد من خطوات عملية نكتسب بها خشوع الصلاة، ومبدأ هذه الخطوة هو العلم بحقيقة

---

١٢) الزمر آية ٢٣.

١٣) رواه مسلم وأحمد والنسائي وعبد بن حميد.

١٤) مريم آية ٥٨.

الخشوع وأقسامه وأسبابه وموانعه، فإن الخشوع ثمرة من ثمرات العلم :

﴿إن الذين أوتوا العلم مِن قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سُجَّدا ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعدُ ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾[15].

ونسأل الله تعالى ان تكون هذه الرسالة من العلم النافع الذي يعين على الخشوع في الصلاة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل
البيضاء في الثاني عشر من ربيع الأول ١٤٠٩هـ
محمد عز الدين توفيق

---

١٥) الاسراء آية ١٠٧



لماذا الخشوع في الصلاة ؟

لقد ارتبط الخشوع بالصلاة أكثر من غيرها. فلا يُذكر إلا وينصرف الذهن إليها لأن أعمالها تتضمن الذكر والدعاء وتلاوة القرآن والركوع والسجود، وهي مواطن الخضوع والبكاء والخشية والتخشع.

وقد أمر الاسلام بالصلاة وأمر بالخشوع فيها لاسباب ومقاصد كثيرة منها :

١ - إن الله سبحانه وتعالى أمر بإقامة الصلاة وإقامتها تعني أداءها كما أمر الله ورسوله، يقول سيد قطب رحمه الله[1] : «إن إقامة الصلاة شيء غير التولي قبل المشرق والمغرب، إنها توجه الانسان بكليته إلى ربه ظاهرا وباطنا، جسما وعقلا وروحا، إنها ليست مجرد حركات رياضية بالجسم، وليست مجرد توجه صوفي بالروح، فالصلاة الاسلامية تلخص فكرة الاسلام الأساسية عن الحياة، إن الاسلام يعترف بالانسان جسما وعقلا وروحا في كيان، ولا يفترض أن هناك تعارضا بين نشاط هذه القوى المكونة في مجموعها للانسان، ولا يحاول أن يكبت الجسم لتنطلق الروح لأن هذا الكبت ليس ضروريا لانطلاق الروح، ومن ثم يجعل عبادته الكبرى «الصلاة» مظهرا لنشاط قواه الثلاث وتوجهها الى خالقها جميعا في ترابط واتساق يجعلها قياما

١) في ظلال القرآن جـ ٣ ص. ١٦٠ ط دار الشروق.

وركوعا وسجودا تحقيقا لحركة الجسم ويجعلها قراءة وتدبرا وتفكيرا في المعنى والمبنى تحقيقا لنشاط العقل، ويجعلها توجها واستسلاما لله تحقيقا لنشاط الروح» اهـ.

٢ - إن الصلاة جزء من ميراث النبوة، توارثها المسلمون خلفا عن سلف، والواجب على الأمة في كل جيل أن تحفظها من الضياع، وتضييعها لا يكون بتركها فقط، بل بتغيير كيفيتها المسنونة.

والأمر النبوي «وصلوا كما رأيتموني أصلي»[٢]، لا يختص بالاعمال الظاهرة من الصلاة فحسب من شروط واركان وسنن، بل يشمل الجوانب الباطنة من اخلاص وخشوع وسكينة واعتدال.

فالاقتصار في تفسير الحديث والاستشهاد به على أعمال الصلاة الظاهرة قصور لأن الاقتداء به عليه الصلاة والسلام ومتابعته في صلاته لا يكون على أتمه حتى تكون صلاتنا في ظاهرها وباطنها نسخة من صلاته عليه الصلاة والسلام.

إن علينا أن نتلقى هذا الميراث النبوي كما هو، حتى لاتضيع منا كيفيته أو يحدث فيها زيادة أو نقصان، ثم ننقله للآخرين دون تغيير.

٣ - بالخشوع يجمع المصلي في صلاته بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن فإذا كان قبل الدخول في الصلاة قد حقق معنى الطهارة الأول : فاغتسل وتوضأ وطهر الثوب والبدن والمكان، فيبقى عليه إذا دخل في الصلاة أن يطهر قلبه بالاخلاص والخشوع، حتى

---

٢) رواه البخاري وأحمد والدرامي.

إذا توجه الجسم الى البيت توجه القلب الى رب البيت وإذا اجتمعت له شروط الصحة اجتمعت الى جنبها شروط القبول.

٤ - لم تكن طريقة السلف في الكلام عن الصلاة تفصل جوانب الاخلاص والخشوع عن جوانب المتابعة والموافقة للسنة، لأن ذلك كله متابعة للسنة وموافقة لها، فالحفاظ على المواقيت من السنة، والجماعة من السنة، والخشوع من السنة، وانما حصل هذا التفريق بعد ان حدث التفريع في العلوم الاسلامية، فاختص الفقه ببحث الجانب الظاهر من أعمال الصلاة.

وآن الوقت لاحياء طريقة السلف في الكلام عن الجانبين والمساواة بينهما[٣].

٥ - إن أول ما يقصده المصلي من إقباله على الصلاة ان تغفر ذنوبه وتكفر سيئاته وتكتب له صلاته في ميزان الحسنات. ولاشك أن ما يعطاه من ذلك يكون بقدر إحسانه في تلك الصلاة.

والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقد كتبه الله على كل شيء، ومن ذلك الصلاة، والاحسان فيها يكون بالاحسان في كيفية أدائها وأيضا فيما قام بالقلب أثناءها من معاني الخشوع والخشية والحضور.

فمن أراد أن تكون صلاته «فعالة» في محو سيئاته، فعالة في زيادة حسناته فليؤدها بإحسان ظاهرا وباطنا، ولتكن أحسنَ صلاةٍ

٣) هناك كتب جمعت بين الجانبين ومنها كتاب الصلاة لابن القيم وصفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لناصر الدين الالباني، وقد استفدنا منها في هذه الرسالة.

يستطيعها فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «ما من مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله»[٤].

فكيف يكون حال المصلي الذي كان ينتظر أن تدافع عنه صلاته بعد موته وتكون له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، فإذا هي تشكوه وتطلب حقها منه.

٦ - الصلاة عبادة تُقَرِّب صاحبها من ربه، كما قال عز وجل : «واسجد واقترب»[٥] الا أن هذا القرب يتفاوت، فعلى قدر إقبال المصلي على ربه وخشوعه بين يديه يكون اقتراب ربه منه، كما جاء في الحديث : «لايزال الله مقبلا على العبد في صلاته ما لم يلتفت، فإذا صرف وجهه انصرف عنه»[٦].

فالالتفات بالعين أو بالقلب يقطع هذه المناجاة ويذهب بهذا القرب، وإنما يردهما الخشوع من جديد.

٧ - إن الصلاة وإن كانت للعبد أجرا وثوابا، إلا أنها لله تعالى قربة وعبادة وواجب على كل مسلم أن يصلي صلاة تليقُ بربه عز وجل، وتصلح قربة إليه سبحانه.

وخلاصة القول : ان الصلاة إذا غاب منها الخشوع، لا تحقق أياً من المقاصد الدنيوية والاخروية التي شرعت من أجلها، لقد قال

---

٤) أخرجه مسلم.
٥) سورة العلق آية ١٩.
٦) اخرجه أحمد وابو داوود والنسائي عن ابي الأحوص عن ابي ذر.

عز وجل : «واقم الصلاة لذكري»[٧] . فكيف يذكر ربه بصلاته من كان فيها غافلا، وكيف يجد مع هذه الغفلة معنى للمناجات وكيف تتميز صلاة المؤمن من صلاة المنافق إذا كانت الغفلة شاملة لهما معا وما معنى تلك السور والادعية والاذكار التي تتلى في الصلاة إذا كانت تتلى مع الغفلة التامة عن معانيها.

فإذا كُنا نشكو من ضعف محبتنا للصلاة، وفقدان الشعور بحلاوة القيام لها وإذا كنا نتساءل لماذا كان النبي ﷺ وصحابته وسلف الأمة الصالح يكثرون من الصلوات ويطيلونها فعلينا أن نهتم بهذا الجانب الكيفي من الصلاة ألا وهو الخشوع، فإن الصلاة عندما تتحول إلى حركات ميتة لا خشوع فيها، لابد أن تثقل على النفس، وتجد في تكرارها السآمة والملل، وسيدعوها ذلك الى الانتقاص منها عددا وكيفية.

---

٧) سورة طه آية ١٤.

الطريق الأول
العلم بمنزلة الصلاة والالمام
ببعض أسرارها

كيف الخشوع في الصلاة ؟

هذا هو السؤال الـذي يأتي بعـد سابقـه : لماذ الخشـوع في الصلاة ؟ والخشوع أوله علم واوسطه عمل وآخره حال، أي لابد من العلم بطرقه ثم الأخذ بها والاجتهاد في حمل النفس عليها حتى تصير حالة راسخة في القلب وطبعا من طباعه الملازمة له.

وسنعقـد للاجابة عن هذا السؤال مجموعة من المباحث، كل مبحث يستقل بطريق من الطرق الموصلة الى الخشوع، دون ان نزعم انها كل الطرق أو أن ما أوردناه عنها قد تقصى ما جاء فيها من العلم.

● **والطريق الأول** : هو العلم بمنزلة الصلاة ومكانتها في دين الاسلام والالمام بطرف من أسرارها.

وإنما جعلنا هذا طريقا أولا لأن أي مسلم يصلي، تحضره صورة معينة عن الصلاة، وهذه الصورة تتحدد معالمها حسب ما أدرك من منزلتها في الدين فإذا كانت الصورة التي في ذهنه تطابق ما للصلاة في الاسلام من منزلة عظيمة فذلك أول الخشوع ومبدأ الاحسان، فإن

هذا المسلم سيسعى لتكون صلاته والصلاة التي تحدث عنها الاسلام سواء.

ومكـانة الصلاة في الاسلام لا تخفى، فهي الركن الثاني بعد الشهادتين كما جاء في حديث جبريل : «الاسلام أن تشهد ان لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة. . . »[1]

بل إنها عمود الأمر : (والأمر الدين).
«رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»[2].

ولا غرابة ان تكون أول ما فرض من أركان الاسلام العملية وآخر ما يفقد منها ومن الاسلام كله، قال النبي ﷺ :
«لـتنقض عرى الاســلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة»[3].

وقد أمر الله عز وجل بالمحافظة عليها في كل الأحوال كما قال :
«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين»[4].

وجعلها سبحانه علامة على الايمان بالله واليوم الآخر : «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وإنهم إليه راجعون»[5].

---

١) رواه مسلم في صحيحه
٢) رواه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده.
٣) رواه ابن حبان من حديث ابي أمامة.
٤) سورة البقرة آية ٢٣٨.
٥) سورة البقرة آية ٤٥.

كما جعل التهاون بها علامة النفاق : «وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا»[٧].

وقد كانت الصلاة عبادة الانبياء من قبل أقاموها وأمروا بها، فلما جاء الاسلام أخذت فيه أكمل صورة، لم تعد ابتهالات واذكارا وأدعية فحسب بل أصبحت ذكرا ودعاء وقياما وركوعا وسجودا، وتناسقت أقوالها وأفعالها بشكل تتحقق به عبودية القلب وعبودية اللسان وعبودية الجوارح، كما صارت لها شروط وأركان ومواقيت وأذان وإقامة وجماعة وغير ذلك.

وقد فرضت على الأمة قبل الهجرة بثلاث سنين، فرضها الله سبحانه على نبيه في ليلة الاسراء والمعراج - على الخلاف في سَنَته - فكانت الفريضة الوحيدة التي شرعت في السماء، وكانت هدية الله لهذه الأمة في تلك الرحلة القدسية المباركة.

ومنذ فرضها الله عز وجل ورسول الله ﷺ يأمر بها ويعلمها حتى كانت آخر وصاياه قبل أن يفارق الدنيا، فقد أوصى الناس فقال : «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» كرر ذلك مرارا[٨].

والأصل في الصلاة - وغيرها من العبادات - أنها تؤدى امتثالا لأمر الله وقياما بحق عبوديته. غير أن الله سبحانه أرشدنا إلى ما يعود

---

٧) سورة النساء آية ١٤٢.

٨) رواه البخاري.

علينا من هذه العبادات في عاجلتنا وآخرتنا، وتلك من محاسن دين الله وموافقته للفطرة فإن الانسان مجبول على حب الخير «وانه لحب الخير لشديد»[9]، ودين الله حق أولا وخير ثانيا.

والعلم بطرف من حكمة هذه الفريضة وأسرارها جزء من العلم النافع الذي يثمر الاحسان في العمل الصالح. والفرق واضح بين صلاة يستحضر صاحبها معنى هذه الفريضة واسرار تشريعها وصلاة يؤديها صاحبها على جهة التقليد.

ونحن نذكر جملة يسيرة من تلك الحِكَم والاسرار التي ذكرها القرآن الكريم أو ذكرتها السنة النبوية أو جاءت في آثار العلماء الصالحين:

● **أولا**: **الصلاة دعوة شفوية تتوجه من الحق سبحانه الى الناس عبر الأذان كل يوم خمس مرات، أن أجيبوا داعي الله وهلموا إليه، فهو أكبر من كل شيء انتم به مشتغلون، وعنده الفلاح كله ولا فلاح عند النداء إلا بالاجابة.**

● **ثانيا**: **والصلاة رمز الايمان بالغيب، فإنها عمل من أعمال الآخرة، ولذلك لم يعدها النبي ﷺ من الدنيا عندما قال**: «حبب الي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»[10].

● **ثالثا**: **والصلاة توبة مفتوحة متجددة يجدد بها المسلم إسلامه ويترقى به الى درجة الاحسان، ففي كل تسليمة تطوى صفحة**

---

9) سورة العاديات آية : ٨.

10) رواه النسائي في عشرة النساء وأحمد في المسند.

وتفتح أخرى، وفي الحديث : «الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن ان اجتنبت الكبائر»[١١].

وفيه أيضا : «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فما ترون يُبقي ذلك من درنه ؟ قالوا : لا شيء، قال : كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[١٢].

● رابعا : والصلاة زاد المسلم في حياته عامة وحياته الدعوية خاصة. قال الله عز وجل : «واستعينوا بالصبر والصلاة»[١٣]، وقال على لسان لقمان يوصي ابنه : «يا بني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك»[١٤].

● خامسا : والصلاة طهارة ظاهرة، فمن شروطها الغسل والوضوء، ونظافة الثوب والبدن والمكان، قال الله تعالى : «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»[١٥].

ومن آدابها التجمل والنظافة، قال الله تعالى : «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد»[١٦].

---

١١) رواه مسلم في الطهارة والترمذي في المواقيت وابن ماجة في الطهارة واحمد المسند.
١٢) رواه مسلم ومالك وأحمد.
١٣) سورة البقرة آية ٤٥.
١٤) سورة لقمان آية ١٧.
١٥) سورة التوبة آية ١٠٨.
١٦) سورة الأعراف آية ٣١.

وبما أن الصلوات الخمس تتوزع ساعات اليوم فهذه الطهارة وهذه الزينة لاتفارق المسلم ليله ونهاره.

● **سادسا** : والصلاة طهارة باطنة، تطهره وتزكيه بما تغرس في قلبه من خشية الله، قال الله تعالى : «ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين»[١٧].

وإذا رأيت الرجل يصلي ولا يظهر لصلاته هذا الأثر، فاعلم أنه قد أُتي من كيفية إقامتها، لأن الله تعالى يقول : «وأقم الصلاة إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر»[١٨].

والصلاة بهذا تحفظ للمصلي طهارته التي خلق عليها، فقد خلقه الله من روح طاهرة وطين طاهر، فإذا تلوث الجسم بالخبائث الحسية طهرته شروط الصلاة وإذا تلوثت الروح بالخبائث المعنوية طهرتها أقوال الصلاة وأفعالها.

والصلاة بهذا نموذج لكل أوامر الاسلام فإنها جميعا جاءت لتُعين الانسان على الاحتفاظ بالطهارة والبراءة الأصلية وتُطهِّرَهُ إن تبلس بشيء ينجسها ويلوثها وإذا لقي الله بهذه الطهارة لقيه طيبا ولا يقبل الله الا طيبا، فيكون في الجنة دار الطيبين.

● **سابعا** : والصلاة مناجاة، فإذا دعا العبد ربه أو ذكره فإنه يناجيه، وإن تلا القرآن فربه يناجيه.

---

١٧) سورة المعارج آية ١٩ - ٢٢.
١٨) سورة العنكبوت آية ٤٥.

ولاشك أن الاذن بالدخول عليه سبحانه، والافضاء بالحاجات بين يديه تكريم عظيم للانسان، وهل رأيت عظيما من عظماء الارض يستقبل الراغبين في ملاقاته بمثل هذا اليسر ؟

نحن عندما نريد أن نلقى مسؤولا يفوتنا بمنصبه، نطلب المقابلة فينظر في الطلب وموضوعه ويحدد الزمان والمكان، هذا إذا قبل الطلب وقد لا يُقبل، أما مقابلة الحق سبحانه فهي بيد العبد زمانا ومكانا، لا ينهيها عز وجل حتى ينصرف العبد مختارا، قال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن، وتكلمه بلا ترجمان دخلت قيل وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل محرابك، فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان.

● ثامنا : والصلاة ولاء متجدد لله عز وجل، ورفض مستمر لعبودية غيره، وهذا الولاء يتجدد في كل ركعة عندما يقول المسلم : «إياك نعبد وإياك نستعين».

● تاسعا : والصلاة معرفة بالصفات والأسماء، فإنها بجميع أقوالها وأفعالها تذكير باسماء الله وصفاته وبيان للحدود الفاصلة بين الألوهية والعبودية.

● عاشرا : والصلاة عبرة وذكرى : فإن تَطَهُّر المصلي لصلاته يُذَكِّره بالتطهر لملاقاة ربه «فإذا كان العبد لا يدخل عليه سبحانه حتى يستقبل بيته المحرم بوجهه ويستر عورته، ويطهر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه ثم يخلص له النية، فهكذا الدخول عليه وقت اللقاء

لا يحصل إلا بأن يستقبل ربه بقلبه كله، ويستر عوراته الباطنة بلباس التقوى، ويطهر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظاهرة والباطنة، ويتطهر لله طهرا كاملا ويتأهب للدخول أكمل تأهب»[١٩].

فإذا كان أمله في الدنيا قصيرا، وكان يحمل هم الخاتمة، لم يزل على طهارة حتى يوافيه الأجل.

● حادي عشر: والصلاة تربية، فإنها تدعو بقية خصال الخير، وتدفع صاحبها لأعمال البر والتقوى، ولذلك فالذي يصلي لا يخلو من خير، ولابد أن يكون حفاظه على صلاته سببا لتدارك ما ينقصه من دينه، فإن الصلاة تورث الحياء، والحياء يحجز عن المعصية فتتفرغ النفس للطاعة، وتشتغل بما يفيد وينفع.

● ثاني عشر: والصلاة قوة روحية: تسعف صاحبها عند النوازل، وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم إذا حز به امر فزع الى الصلاة[٢٠]، ولا عجب في ذلك فان الذي قدّر على عبده ما أفزعه الى الصلاة قادر على رفعه وكشفه «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو»[٢١].

• إن الصنعة عندما تعرض على صانعها مرة في الشهر تبقى سالمة. فكيف بصنعة تعرض على صانعها كل يوم خمس مرات؟

وَمَنْ هذا الذي يقوى على خوض غمار الحياة بمفرده؟ وهي شبكة من الأغراض والحاجات والنوازل يمسك بعضها بتلابيب بعض؟

١٩) ابن القيم: مدارج السالكين جـ ٣ ص ٨٤.
٢٠) رواه النسائي وأحمد.
٢١) سورة الأنعام آية ١٧.

ومن الأحاديث التي تشير إلى القوة الروحية التي يجدها المصلي في نفسه قوله عليه الصلاة والسلام : «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد : يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد، فإذا هو قام فذكر الله انحلت عقدة فإذا توضأ انحلت عقدة ثانية، فإذا قام إلى الصلاة انحلت عقده الثلاث فأصبح طيب النفس نشيطا، والا أصبح خبيث النفس كسلان»[٢٢]

● ثالث عشر : والصلاة قوة بدنية : فهي تتطلب نظاما صارما في مواقيتها كما أن التنقل بين أركانها يتم بحركات جسمية رياضية، أما الذهاب اليها في المسجد فيتطلب المشي إليها، إضافة إلى الفوائد الصحية للغسل والوضوء، فهي من هذه الجوانب كلها رياضة جسمية ووقاية صحية وعلاج لعدد من العلل والأسقام[٢٣].

---

٢٢) رواه البخاري ومسلم وابو داوود وابن ماجة وأحمد ورواه مالك في الموطأ.
٢٣) استفدنا في هذا الفصل من كتاب العبادة في الاسلام للدكتور يوسف القرضاوي والأركان الأربعة لابي الحسن الندوي والاسلام لسعيد حوى.

الطريق الثاني
التحقق بخشوع الظاهر : سكون الجسم أثناء الصلاة

الخشوع في الصلاة له جانبان متلازمان، أحدهما يتعلق بالجوارح، وهو سكونها عن الحركة الزائدة إلا ما كان جزءا من الصلاة، والآخر يتعلق بالقلب، وهو سكون خواطره الرديئة ووساوسه المشوشة، وكلا المعنيين مقصود في المواضع التي أمر الله فيها بالخشوع كقوله تعالى : «قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون»[1].

وقد كان النبي ﷺ يجمع خشوع الظاهر والباطن في دعائه في الركوع فكان يقول : «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي، وفي رواية : **وما استقلت به قدماي**»[2]. والقدمان تستقلان بالقلب والجسم على السواء.

وسيكون حديثنا أولا عن خشوع الظاهر لنتحدث بعده عن خشوع القلب. فخشوع الجوارح أو ما يسميه الفقهاء بالاعتدال والاطمئنان، ركن من أركان الصلاة وفريضة من فرائضها، لا تصح الصلاة بدونه، وقد أفاد فرضيتَه حديثُ المسيء صلاته :

---

1) سورة المومنون آية ١ و٢.
2) رواه مسلم.

فعن ابي هريرة رضي الله عنه قال : دخل رجل المسجد فصلى، ثم جاء الى النبي ﷺ فسلم فرد عليه السلام وقال : ارجع فصل فإنك لم تصل، فرجع ففعل ذلك ثلاث مرات، قال : فقال والذي بعثك بالحق ما أحسن غيرهن فعلمني قال : إذا قمت الى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها[3].

وكثير من المسلمين يكررون خطأ هذا الأعرابي، وأغلبهم لا يجدون مثل فرصته لاصلاح صلواتهم، فترى الرجل قد شاب عارضاه في الاسلام، وصلى زمانا طويلا لكنه لم يكمل صلاته يوما، لأنه لا يتم ركوعها وسجودها وخشوعها.

ان أغلب المسلمين لا ينتقصون من صلاتهم عنادا، ولكنهم يجهلون حكم الخشوع الظاهر وأنه من فرائض الصلاة، كما يلتبس عليهم معنى التخفيف الذي وصفت به الصلاة النبوية والقدر الواجب من هذا الخشوع، فيتعلمون الصلاة من محيطهم بعيدا عن السنة، فإذا علموا حدود السنة بعد ذلك ثقل عليهم تغيير عوائدهم.

والاعتدال كما في حديث المسيء صلاته : ألا ينتقل المصلي من ركن الى الذي يليه حتى يعود كل عضو إلى محله، ويمكث كذلك زمنا يقرأ فيه أذكار ذلك الموضع.

والصلاة أقوال وأفعال، فإذا كان في قول تأنى في النطق به، وإذا كان في فعل تأنى في الاتيان به، وهكذا تعم الصلاةَ كلَّها هيئةٌ

---

٣) رواه البخاري.

من السكينة والهدوء سواء أثناء أداء الأركان أو أثناء الانتقال بينها، فإن خشوع الظاهر هيئة ترافق المصلي من أول صلاته إلى آخرها.

ومن التزم بالكيفية النبوية في الصلاة تحقق بخشوع الظاهر ففي صلاته عليه الصلاة والسلام النموذج الأكمل للاعتدال والاتمام.

في الصحيحين من حديث انس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يوجز الصلاة ويكملها، وفيهما عن انس أيضا قال: ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من صلاة النبي ﷺ وسنثبت هنا ملخصا لصفة صلاته عليه الصلاة والسلام مركزين على ما يتصل بالاعتدال والخشوع من اشارات تأمر به أو تبين حده وقدره في كل اركان الصلاة[4]

١ - التكبير:

كان صلى الله عليه وسلم إذا كبر طأطأ رأسه، ورمى ببصره الى الأرض، وكان ينهى عن رفع البصر الى السماء، وقال: «إذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت[5]، وقال عن الالتفات: «انه اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[6].

---

٤) اعتمدنا في اثبات هذا الموجز على صفة صلاة النبي للشيخ ناصر الدين الالباني إذ ليس من غرضنا تفصيل صفة صلاته عليه الصلاة والسلام فذلك مبسوط في كتب الحديث والفقه.

٥) أحمد والترمذي.

٦) أبو داوود والنسائي وابن خزيمة بسند صحيح وصححه ابن حبان.

٢ - وضع اليمنى على اليسرى :

فقد كان صلى الله عليه وسلم يضع اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغ والساعد[٧] وأمر بذلك أصحابه، وكان أحيانا يقبض باليمنى على اليسرى وكان يضعهما على الصدر، و لايخفى ان هيئة اليدين هذه، تمنعهما من العبث، وتوحي بحالة من الاخبات والمسكنة والخضوع لله رب العالمين.

٣ - دعاء الاستفتاح:

ومن أدعيته في الفرض : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[٨].

وهناك أدعية اخرى يقرأ هذا مرة وهذا مرة كل ذلك بتذلل وخشوع وأدب.

٤ - الاستعاذة والبسملة :

كان صلى الله عليه وسلم يقول : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[٩].

ثم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ولا يجهر بها[١٠].

٧) البخاري ومسلم.
٨) رواه البخاري ومسلم.
٩) رواه أبو داوود والنسائي وابن خزيمة بسند صحيح وصححه ابن حبان.
١٠) رواه البخاري ومسلم.

٥ ـ قراءة الفاتحة والسورة :

يقرأها بترتيل وصوت حسن، فقد كان النبي ﷺ يرتل القرآن ترتيلا ـ كما أمره الله ـ لا هذًا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفا حرفا[١١]. وكان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها[١٢].

وكان يقرأ سورة الفاتحة ـ وهي سبع آيات ـ قدر ما يقرأ غيْرُه خمس عشرة آية للتأني الذي يقرأها به.

وتأمل قوله «قراءة مفسرة حرفا حرفا»، تفهم حد الاعتدال عند القراءة فإن العجلة تذهب بمخارج الحروف فيدخل بعضها في بعض، وعلم التجويد يحفظ اللسان من أنواع اللحن عند قراءة القرآن فتعلّمه ضروري لخشوع القراءة واعتدالها وهو علم يُتلقى عن الشيوخ، فإذا تيسر للمسلم دراسته بالسند على أحد علمائه فذلك اسلم وأضمن، وإن لم يتيسر له ذلك فلينصت الى الائمة المقرئين أو الى تسجيلاتهم حتى يتدرب على مثل قراءة أحدهم.

وقد جاء في حديثين الاشارة الى امرين مهمين عند القراءة : الأول : مد آخر الآيات، والثاني : الوقوف عند رؤوس الآي.

فقد روى البخاري عن قتادة قال : سألت أنسا عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كان يمد مدا، إذا قرأ بسم الله الرحمٰن الرحيم يمد بسم الله ويمد بالرحمٰن ويمد بالرحيم.

والظاهر أنه مد متعادل في نهاية كل آية، فإنه صلى الله عليه وسلم حريص على التناسب بين أعمال الصلاة، ثم إنه في قواعد

---

١١) رواه أبو داوود وأحمد باسناد صحيح.

١٢) رواه مالك ومسلم.

التجويد مدٌّ طبيعي له حركتان في نهاية كل آية. فلا يجعل لبعضها أربعا أو خمسا أو ثلاثا بل يساوي بينها في المد.

وقد رأيت بعض المقرئين لا يميزون في صلاتهم آخر آية يقرؤونها بمد زائد بل يجعلون مدها كمدود الآيات الأخرى، ولم أقف على ما يفيد تخصيص آخر آية تُقرأ بمد زائد كما لم أقف على ما يفيد تخصيص آخر سجدة بطول زائد أيضا.

وروى أبو داوود وصححه الحاكم ووافقه الذهبي أنه ﷺ كان يقرأ الفاتحة ويقطعها آية آية، بسم الله الرحمٰن الرحيم [ثم يقف ثم يقول] الحمد لله رب العالمين [ثم يقف ثم يقول] الرحمٰن الرحيم [ثم يقف ثم يقول] مالك يوم الدين، وهكذا الى آخر السورة، وكذلك كانت قراءته كلها، يقف على رؤوس الآي، ولا يصلها بما بعدها، وكان تارة يقرؤها ملك يوم الدين.

وعلى المصلي الا يتعمق ويتكلف في شكل القراءة حتى يصرفه ذلك عن متابعة المعنى، كما عليه الا يلعب بالقراءة ويتخذ الصلاة مجالا للتداريب وتغيير الاصوات فإن ذلك يضاد مقصود القراءة، وانما تكون قراءته حسنة صادقة لا تكلف فيها ولا لحن ولا رياء.

٦ - الركوع :

وكان صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من القراءة سكت سكتة(١٣)، ثم رفع يديه على نحو ما يفعل في تكبيرة الاحرام وكبر وركع(١٤)، وكان

١٣) رواه أبو داوود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (قال ابن القيم : سكتة بقدر ما يرتد إليه نفسه).

١٤) رواه البخاري ومسلم.

صلى الله عليه وسلم يضع كفيه على ركبتيه كأنه قابض عليهما[١٥]، وكان يفرج بين أصابعه[١٦]، وكان ينحي مرفقيه عن جنبيه[١٧]، وإذا ركع بسط ظهره وسواه[١٨] حتى لو صب عليه الماء لاستقر[١٩] وكان لا يصب رأسه ولا يقنع[٢٠] ولكن بين ذلك[٢١]، أي كما يكون ظهره يكون رأسه في استقامة واحدة.

وكان صلى الله عليه وسلم يطمئن في ركوعه وكان يقول: «اتموا الركوع والسجود فوالذي نفسي بيده اني لأراكم من بعد ظهري (اي من ورائي) إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم[٢٢]».

وكان يقول: أسوء الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قالوا يا رسول الله وكيف يسرق من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها وسجودها[٢٣].

٧ - أذكار الركوع:

منها: «سبحان ربي العظيم» ثلاثا[٢٤] وكان أحيانا يكررها أكثر

١٥) رواه البخاري وأبو داوود.

١٦) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

١٧) رواه، الترمذي وصححه ابن خزيمة.

١٨) رواه البيهقي بسند صحيح والبخاري.

١٩) رواه الطبراني في الكبير والصغير وعبد الله بن احمد في زوائد المسند وابن ماجة.

٢٠) رواه ابو داوود والبخاري في جزء القراءة بسند صحيح (ومعنى لا يقنع: أي لا يرفع رأسه أعلى من ظهره).

٢١) رواه مسلم وأبو عوانة.

٢٢) رواه البخاري ومسلم.

٢٣) رواه ابن أبي شيبة والطبراني والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

٢٤) رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجة والدارقطني والطحاوي والبزار والطبراني في الكبير عن سبعة من الصحابة.

ومنها : «سبحان ربي العظيم وبحمده» ثلاثا[٢٥].

ومنها : «اللهم لك ركعت وبك آمنت، ولك اسلمت [انت ربي] خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي [وفي رواية : وعظامي] وعصبي [وما استقلت به قدمي لله رب العالمين][٢٦].

وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن قراءة القرآن في الركوع والسجود فقال :

«ألا وإني نهيت أن اقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم»[٢٧].

٨ - الرفع من الركوع :

وكان صلى الله عليه وسلم يرفع صلبه من الركوع قائلا : «سمع الله لمن حمده وكان يقول وهو قائم : ربنا ولك الحمد[٢٨]، وكان يرفع يديه عند هذا الاعتدال وقد يزيد على قوله ربنا ولك الحمد : ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد[٢٨]، أو يزيد : «حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى»، وهذا هو الذكر الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام - وقد قاله أحد المصلين خلفه - : «لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونها ايهم يكتبها الأول[٢٩].

---

٢٥) رواه أبو داوود والدارقطني وأحمد والطبراني والبيهقي (صحيح).

٢٦) رواه مسلم وأبو عوانة والطحاوي والدار قطني.

٢٧) رواه مسلم وأبو عوانه.

٢٨) رواه مسلم وأبو عوانه.

٢٩) رواه مالك والبخاري وأبو داوود.

وكان يقوم من الركوع حتى يقول القائل قد نسي من طول ما يقوم[٣٠].

وكان يجعل ركوعه وقيامه بعد الركوع وسجوده وجلسته بين السجدتين قريبا من السواء[٣١].

فتأمل قوله : «قريبا من السواء»، أي أنه إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين واذا توسط في القيام أو خفف فعل مثل ذلك في سائر صلاته، لكن كثيرا من المصلين يخففون الركوع والسجود جدا وكأنها معبر الى القيام فحسب، فتبدو صلاتهم غير متعادلة.

إن هذه الملاحظة التي سُجِّلت عن تناسق صلاته عليه الصلاة والسلام تبين أن أي ركن من أركان الصلاة ليس بأقل من غيره في أحقيته بالاعتدال والاطمئنان ولذلك ترى في حديث المسيء صلاته تكرار الامر بالاطمئنان في كل ركن :
«اركع حتى تطمئن راكعا وارفع حتى تطمئن قائما واسجد حتى تطمئن ساجدا وارفع حتى تطمئن جالسا. . . ثم افعل ذلك في صلاتك كلها.

وهذا التعادل سمة عامة لصلاته عليه الصلاة والسلام، تبدو من وجوه كثيرة منها غير ما ذكر - قراءته الفاتحة والسورة في الأوليين من الرباعية والثلاثية والاقتصار على الفاتحة في الأخريين[٣٢]، ومنها قراءته

---

٣٠) رواه البخاري ومسلم وأحمد.
٣١) رواه البخاري ومسلم.
٣٢) الغالب منه وقد ثبت قراءة الفاتحة وحدها في سائر الركعات (انظر صفة صلاة النبي للالباني. ص : ١٠٢.

في الركعة الثانية بسورة اقصر من سورة الركعة الأولى وهكذا. كما يبدو التعـادل في صلاته عليه الصلاة والسلام من جهة الهيئة التي يكون عليهـا في القيام والركوع والسجود. فإذا قام للقراءة قام مستقيما لا يتحرك منه سوى شفتيه، وإذا ركع كانت يداه على ركبتيه في امتداد كامل وكان ظهره ورأسه في استقامة واحدة، وإذا سجد كانت هيئة سجوده الموصوفة قبل في غاية الاعتدال والاستواء.

فهذه معاني ثلاثة للاعتدال أو الخشوع الظاهر :

أولا : استقامة الجسم واعتداله في هيئات القيام والركوع والسجود والجلوس.

ثانيا : السكون مدة مكثه في كل ركن.

ثالثا : التأني عند الانتقال منه الى غيره.

٩ - السجود :

كان ﷺ يكبر ويهوي ساجدا[٣٣]، وأمر المسيء صلاته أن يكبر ويسجد حتى تطمئن مفاصله[٣٤]، وكان أحيانا يرفع يديه إذا سجد (روي ذلك عن عشرة من الصحابة)، وكان يبدأ في سجوده باليدين فيضعهما على الأرض ثم ركبتيه، وكان يأمر بذلك فيقول : «إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير وليضع يده قبل ركبتيه[٣٥]»

وكان ﷺ يسجد على سبعة أعضاء[٣٦] : الكفان (ويجعلهما حذو منكبيه وأحيانا حذو أذنيه ويضم اصابعهما ويوجههما نحو القبلة، ولا

٣٣) رواه البخاري ومسلم.

٣٤) رواه أبو داوود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

٣٥) رواه أبو داوود وأحمد بسند صحيح.

٣٦) البخاري ومسلم.

يفترش ذراعيه بل يرفعهما ويباعدهما عن جنبيه حتى يبدو بياض ابطيه من ورائه، وحتى لو أن حملا أراد أن يمر تحت يديه مر)، والركبتان والقدمان (ويستقبل بأطراف أصابعهما القبلة ويرص عقبيه وينصب رجليه)، والجبهة والأنف. وكان يقول : اذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب : وجهه وكفاه وركبتاه وقدماه[٣٧].

وكان يقول أيضا : اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب[٣٨].

١٠ - أذكار السجود :

كان ﷺ يقول في سجوده : سبحان ربي الأعلى ثلاثا[٣٩] ويكررها أحيانا أكثر من ذلك. وهناك أدعية أخرى[٤٠]، وللمصلي ان يدعو بها شاء ففي الحديث : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا الدعاء فيه»[٤١].

١١ - الرفع من السجود :

وكان ﷺ يرفع رأسه من السجود مكبرا[٤٢] حتى يستوي قاعدا، وكان يقعد على رجله اليسرى[٤٣]، وينصب اليمنى[٤٤] مستقبلا

٣٧) رواه مسلم وأبو عوانة وابن حبان.
٣٨) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود وأحمد.
٣٩) رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجة والدارقطني والطحاوي والبزار والطبراني في الكبير عن سبعة من الصحابة.
٤٠) انظرها في صفة صلاة النبي ص/١٥٤ وما بعدها ط المكتب الاسلامي.
٤١) رواه مسلم وأبو عوانة والبيهقي.
٤٢) رواه البخاري ومسلم.
٤٣) رواه البخاري في جزء رفع اليدين وأبو داوود بسند صحيح ورواه مسلم وأبو عوانة.
٤٤) رواه البخاري والبيهقي.

بأصابعها القبلة[٤٥] وكان يطمئن في رفعه من السجود حتى يرجع كل عظم الى موضعه[٤٦]، وأمر بذلك المسيء صلاته، وكان يطيل هذه الجلسة حتى تكون قريبا من سجدته[٤٧] وأحيانا يمكث حتى يقول القائل قد نسي[٤٨].

وكان يقول في هذا الجلوس: «اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني وارفعني واهدني وعافني وارزقني»[٤٩] وتارة يقول: «رب اغفر لي رب اغفر لي»[٥٠].

ثم يسجد السجدة الثانية ويفعل مثل ما فعل في الأولى.

١٢ - جلسة الاستراحة:

كان صلى الله عليه وسلم يستوي قاعدا على رجله اليسرى معتدلا حتى يرجع كل عظم إلى موضعه[٥١]. وكان ينهض معتمدا على الأرض الى الركعة الثانية[٥٢]، وكان يعجن في صلاته يعتمد على يديه إذا قام[٥٣]، وكان يفعل مثل ما فعل في الأولى غير أنه يجعل الثانية أقصر.

---

٤٥) رواه النسائي بسند صحيح.
٤٦) رواه أبو داوود والبيهقي بسند صحيح.
٤٧) رواه البخاري ومسلم.
٤٨) رواه البخاري ومسلم.
٤٩) رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.
٥٠) رواه ابن ماجة بسند صحيح.
٥١) رواه البخاري وأبو داوود.
٥٢) رواه البخاري والشافعي.
٥٣) رواه ابو اسحاق الحربي بسند صالح ومعناه عند البيهقي بسند صحيح.

١٣ - التشهد والسلام :

كان صلى الله عليه وسلم يجلس للتشهد بعد الفراغ من الثانية، فإن كانت الصلاة ركعتين - كالصبح - جلس مفترشا[٥٤]، كما يجلس بين السجدتين، وكذا يجلس في التشهد الأول[٥٥] من الثلاثية والرباعية، وان كان التشهد الأخير جلس متوركا[٥٦].

وكان يضع كفه اليمنى على فخذه، وفي رواية ركبته اليمنى، ووضع كفه اليسرى على فخذه، وفي روايته : ركبته اليسرى[٥٧]، وكان يضع حد مرفقه الأيمن على فخذه اليمنى[٥٨] (أي نهاية المرفق فلا يرفعه عن جنبه).

وكان يبسط كفه اليسرى على ركبته اليسرى، ويقبض أصابع كفه اليمنى كلها ويشير بأصبعه التي تلي الابهام الى القبلة، **ويرمي بصره إليها**[٥٩]، وكان إذا أشار بأصبعه وضع إبهامه على أصبعه الوسطى[٦٠]، وتارة كان يحلق بها حلقة[٦١]، وكان يحرك أصبعه يدعو بها[٦٢].

---

٥٤) رواه النسائي بسند صحيح.
٥٥) رواه البخاري وأبو داوود.
٥٦) رواه البخاري.
٥٧) رواه مسلم وأبو عوانة.
٥٨) رواه أبو داوود والنسائي بسند صحيح.
٥٩) رواه مسلم وأبو عوانة وابن خزيمة.
٦٠) رواه مسلم وأبو عوانة.
٦١) رواه أبو داوود والنسائي وابن الجارود وابن خزيمة وابن حبان بسند صحيح وصححه ابن الملقن.
٦٢) نفس التخريج رقم ١١.

وكان يتشهد ويصلي على نفسه ويدعو ثم يسلم يقول : السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه حتى يُرى بياض خده ويقول مثل ذلك عن يساره[٦٣].

وكان أحيانا يزيد في التسليمة الأولى : وبركاته[٦٤]، ونهى عن الاشارة باليد عند السلام بل يضع يده على فخذه ويسلم.

وقد وردت صيغ للتشهد[٦٥] منها تشهد ابن مسعود قال : «علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وكفي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن : التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله [وهو بين ظهرانينا، فلما قُبض قلنا : السلام على النبي][٦٦].

وورد في الصلاة عليه بعد التشهد صيغ هذه احداها : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد»[٦٧].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليستعذ بالله من أربع [يقول :

٦٣) رواه أبو داوود والنسائي والترمذي وصححه.
٦٤) رواه أبو داوود وابن خزيمة بسند صحيح صححه عبد الحق الاشبيلي في احكامه وكذا النووي وابن حجر.
٦٥) انظرها في صفة صلاة النبي ص ١٧٢.
٦٦) رواه البخاري ومسلم.
٦٧) رواه البخاري.

اللهم اني أعوذ بك] من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر [فتنة] المسيح الدجال [ثم يدعو لنفسه بما بدا له][68].

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو به في تشهده[69] وكان يعلمه الصحابة كما يعلمهم السورة من القرآن[70].

نقلنا هذا الوصف لصلاته عليه الصلاة والسلام ليظهر جليا أن الطريق الثاني للخشوع في الصلاة والمتمثل في خشوع الجوارح، قد ضبطته السنة من خلال بيانها لكل أعمال الصلاة.

غير أن المصلي يمكن أن يأتي بهذه الصفة لا يترك منها حرفا، ثم يؤتى من جهة العجلة والسرعة، لذا لزم الاهتمام بالكيفيات التي وصفت قراءته عليه الصلاة والسلام وركوعه وسجوده وجلوسه، وسائر صلاته، وهذا يحتاج من المسلم الى فترة تدريب، يبدأها أولا باستيعاب صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى تصير علما في صدره ثم يبدأ في إصلاح صلاته بهذا العلم حتى تصفو من البدع والمحدثات، وتخلو من الأعمال التي ليست من الصلاة ولا مما يصلحها كالعبث بالثوب والبدن، وفرقعة الاصابع أو إدخالها في الأنف أو العض على الشوارب أو اللحية أو النظر في الساعة... فقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أقل من هذا وهو مسح الحصى في الصلاة فقال: ان الرحمة تواجهه[71].

---

٦٨) رواه مسلم وأبو عوانة والنسائي وابن الجارود في المنتقى.

٦٩) رواه أبو داوود وأحمد بسند صحيح.

٧٠) رواه مسلم وأبو عوانة.

٧١) رواه أحمد وأصحاب السنن عن ابي ذر، والنهي هنا لا يعني ان هذه الأعمال تبطل الصلاة، فإن الصلاة لا تبطل الا بالعمل الكثير (وحَدُّه إذا رآه انسان من بُعد تيقن به

وَقَدْ حَسَبْتُ المدة التي تؤدى فيها ركعتان باعتدال وطمأنينة فوجدتها خمس دقائق اقتصرت فيها على الحد الأدنى من أذكار الركوع والرفع منه والسجود والجلوس وقرأت فيهما بالزلزلة والعاديات، غير أن هذا أمر نسبي أذكره على جهة الاخبار لا على جهة التحديد فإن السنة قد وصفت أعمال الصلاة وكيفية أدائها بما هو أدق وأيسر وأثبت من التحديد بالوقت.

التخفيف المأمور به شرعا:

الحديث عن خشوع الظاهر يقودنا للحديث عن معنى التخفيف الذي أمر به النبي ﷺ الامام وجاء وصفا ثابتا لصلاته ﷺ بأصحابه يقول ابن القيم رحمه الله[٧٢]: «وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه... وإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه، وقد صانه الله من ذلك، وكان يأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب الى البقيع فيقضي حاجته، ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى، فهذا هو التخفيف الذي أمر به لا نَقْرُ الصلاة وسرقتها» اهـ.

ولاشك ان التخفيف الذي يرفع الحرج والمشقة قد أمرت به السنة لكنها بينته، أما التخفيف الذي يفضي الى إساءة الصلاة فقد جعلته من مبطلاتها. فالتخفيف من الأوامر التي لم يُترك تقديرها لعقول

انه ليس في الصلاة) أما العمل اليسير كخلع النعل والاشارة برد السلام وتعديل العمامة ولبس الثوب أو نزعه وحمل الشيء ووضعه والالتفات والتحرك اليسير ونحو ذلك فلا يبطلها لكنه يتنافى وكمال الخشوع، فلا ينبغي ان يتخذ عادة بل يُفعل ضرورة.

٧٢) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٣٩٢.

الناس. فإذا وافقت الصلاة السنة لم يُلتفت بعد ذلك لرأي أحد، فإن الله سبحانه قد وصف أناساً فقال: «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»[٧٣] وقال: «وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى»[٧٤]. ولو أخذنا بآراء الناس في التخفيف لخرجت الصلاة الى مجال لا ينضبط ولا يحصل فيه اتفاق.

ثم إن السنة لم تضع حدا معينا لخشوع الجسم في الصلاة لأن أحوال الانسان تختلف في السفر والحضر والصحة والمرض والفراغ والشغل والفرح والحزن... فتحدثت السنة عن الحد الأدنى وتركت مجالا مفتوحا يتراوح بين الاقتصاد والاعتدال والاحسان.

صلاة الجماعة والخشوع في الصلاة

كيف نجمع بين حضور الصلاة مع جماعة المسلمين والتحقق بالخشوع فيها؟

إن من عوائق الخشوع في صلواتنا أن أكثر أئمتنا لا يعطون الصلاة حقها من الطمأنينة والاعتدال إما جهلا منهم وإمانزولا عند احتجاجات بعض المصلين وهذه ملاحظات تعين على خشوع الصلاة عندما تكون في المسجد:

١ - اذا خرج المسلم الى المسجد فليخرج بسكينة ووقار، لأنه في حكم المصلي من حين خروجه، كما أن في العجلة عند دخول المسجد تشويشا على الداخل والمصلين معا. عن ابي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جَلَبَة رِجْل، فلما صلى قال: ما شأنكم؟

٧٣) سورة البقرة اية ٤٥.
٧٤) سورة النساء آية ١٤٢.

قالوا : استعجلنا الى الصلاة، قال : فلا تفعلوا، إذا أتيتم الى الصلاة فعليكم بالسكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا[٧٥]

والسكينة معنى يجمع بين غض البصر وخفض الصوت ولزوم الوقار في المشي.

٢ - أن يحضر الى المسجد نظيف الثياب، فيتخير لصلاته من اللباس أحسنه قال الله تعالى : «خذوا زينتكم عند كل مسجد»[٧٦] أي عند كل صلاة، في المسجد كانت أو في غيره.

٣ - ان يكون فمه وبدنه نظيفا طيب الرائحة، فان الرائحة الكريهة تؤذي صاحبها ومن يليه وتذهب بخشوع الصلاة أو تنال منه. وهذا من حكمة النهي عن حضور المسجد بعد أكل البصل والثوم والكراث نيئا لرائحته.

٤ - أن يتولى الامامة أقرؤهم لكتاب الله، أي أحفظهم وأفقههم فيه حتى يكون عارفا بأحكام الصلاة. فإن الامام قدوة لمن وراءه في الاحسان والاساءة وعلى المسلم أن يتحرى المساجد التي تقام فيها الصلاة بشروطها وإن بعدت وينصح الامام حتى تحسُن صلاته فإن النصح واجب في الدين.

وقد كره العلماء الصلاة وراء المبتدع والفاسق لأن المسلم لا يرتاح للصلاة خلفهما، فالأول منهما بسبب ما يفعل في صلاته والثاني بسبب ما يفعل خارجها ولا نحب ان نبحث حكم الصلاة خلف

---

٧٥) أخرجه الشيخان.

٧٦) سورة الأعراف آية : ٣١.

هؤلاء. فإن ذلك مبسوط في مواضعه لكننا نبحث الى جانب شروط الصحة وإبراء الذمة شروط القبول والكمال وصلاة المسلم خلف إمام لا يرضاه يؤثر في خشوعه، ولأجل ذلك نهى النبي صلى ﷺ ان يؤم الرجل القوم وهم له كارهون[٧٧]، إذا كانت الكراهة دينية لسبب فسق أو بدعة أو لوجود من هو أحق منه وأولى.

٥ ـ الحرص على الحضور الى المسجد قبل الأذان إن امكن او قبل الاقامة لادراك أول الصلاة وأدائها في الصفوف الأولى، فإن القرب من الامام أدعىٰ إلى سماعه وحسن متابعته. إضافة إلى ما ورد في الصف الأول من الفضل[٧٨].

٦ ـ تسوية الصفوف وسد الفرج، فإن لذلك اثره العجيب في حصول الخشوع لدى المصلين، وقد جاء في الحديث ان الشيطان يتخلل الصفوف مثل الحذف[٧٩].

٧ ـ متابعة الامام وعدم مسابقته، لأن مسابقته تذهب بالخشوع وتبطل الصلاة وقد جاء في الحديث «إنما جعل الامام ليؤتم به»[٨٠].

الخشوع في النوافل:

بعض المصلين لا يؤدي النافلة بنفس ما يؤدي به الفريضة من الاعتدال والاطمئنان، فيكون خشوعه في النوافل ضعيفا للعجلة التي

٧٧) رواه الترمذي وأبو داوود في كتاب الصلاة وابن ماجة في الاقامة ورواه أحمد في المسند.

٧٨) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا ان يستهموا عليه لا ستهموا» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

٧٩) رواه أبو داوود والنسائي والحذف صغار الضأن.

٨٠) جزء من حديث رواه الجماعة.

يصليهـا. والصواب أن الفرض والنفل سواء في جميع ما ذكرنا، بل الأفضل له أن يطيل النافلة أكثر - إلا ما جاء في السنة تخفيفها - فإنها تكمل نقص الفريضة فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، يقـول ربنـا لملائكتـه وهـو أعلم: انـظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئا قال: انـظروا هل لعبـدي من تطوع فإن كان له تطوع قال: اتموا لعبدي فريضته من تطوعه ثم توخذ الأعمال على ذلك»(٨١)

غير أن المسلم الذي يكمل الفريضة ثم يكمل النافلة تكون له هذه الأخيرة زيادة وفضلا.

---

٨١) رواه أبو داوود في كتاب الصلاة. وهو مخرج في صحيح أبي داوود للألباني (رقم ٨١٠ - ٨١٢).

الطريق الثالث
التحقق بخشوع الباطن : خشوع القلب

خشوع القلب في الصلاة هو الغاية الأخيرة من إقامتها وبدونه لا فائدة ولا معنى لخشوع الجوارح بل يصير التناقض بين الظاهر والباطن نفاقا ورياءا، كما قال حذيفة رضي الله عنه : إياكم وخشوع النفاق، فقيل له : وما خشوع النفاق، قال : أن ترى الجسد خاشعا، والقلب ليس بخاشع[1].

والسلامة من هذا الخشوع المزيف أن يبدأ المصلي فيخشع ظاهره ثم لا يقتصر على ذلك بل يجتهد وُسْعه ليخشع باطنه وقلبه، فإن التأثير بينهما متبادل، فالجوارح اذا سكنت تفرغ القلب وانصرف الى الصلاة فإذا قامت به عبودية الخشوع انعكس ذلك على الجوارح فخشعت لخشوعه.

وانما قلنا بوجوب الخشوع الظاهر والاجتهاد بعده في تحقيق الخشوع الباطن لأن خشوع الجسم واجب تبطل الصلاة بدونه وكل المصلين يستطيعونه ودليل البطلان حديث المسيء صلاته فإنه أمر بالاعادة.

أما خشوع القلب فلا يستطيعه كل أحد ولذلك لم توجبه الشريعة تخفيفا عنا وندبت إليه حسب الاستطاعة والامكان غير أنها

١) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٧٦.

شجعت عليه وذلك بأن جعلت مقدار ما يحصل للمصلي من الثواب على قدر ما عقل من صلاته. فإذا كان خشوع الظاهر (الطمأنينة والاعتدال) يُسقط الفرض ويُبْرئ الذمة في الدنيا والآخرة فإن خشوع القلب يجعل للصلاة أجرا وثوابا، وبهذا نوفق بين قوله عليه الصلاة والسلام :

«اذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، فإذا قُضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، فيُذْكِره ما لم يكن يذكر، ويقول : اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس»[٢].

وبين قوله صلى الله عليه وسلم : «إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له الا نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها»[٣].

فخشوع القلب وحضوره في الصلاة من التكبير الى التسليم أمر عزيز وقليل وإن تيسر في بعض الصلوات فقد لا يتيسر في بعضها الآخر، ولذلك كان الأوفق بيسر الشريعة أن تقبل من المصلي أن يسدد ويقارب، فتُسقِط عنه الفرض بخشوع ظاهره وتكتب له الثواب حسب خشوع قلبه، وحينئذ فمن غلب على صلاته الشرود وأراد أن يعيدها ليحصل له ما يحصل بالصلاة الخاشعة من حلاوة الايمان وزيادته وتحصيل مزيد من الأجر والقرب فله ذلك.

٢) رواه الشيخان ورواه النسائي وأحمد.
٣) رواه الامام أحمد في المسند.

وهنا قد يتساءل البعض قائلا : ؟

لماذا ابتلينا بهذه الوسوسة في الصلاة ؟ ولماذا لم يجعل عز وجل خشوعنا عفويا كاملا ؟

والجواب أن الله سبحانه قد خفف عنا عندما جعل الذي نستطيعه جميعا ـ وهو خشوع الظاهر ـ فرضا، وندبنا الى الذي نتفاوت فيه لتظهر فضيلة الانسان في مقاومته لوساوس الشيطان، فالخشوع كسائر العبادات لابد أن يكون نتيجة جهد إنساني يتكافأ فيه الاستعداد وتتفاضل فيه محاولات الاستفادة من هذا الاستعداد.

الفرق بين إخلاص القلب وخشوعه في الصلاة :

الاخلاص ان يقصد بصلاته وجه الله تعالى والدار الآخرة، والخشوع أن تسكن جوارحه ويحضر قلبه فيها، فقد تكون الصلاة خالصة غير خاشعة، لكن لا خشوع بدون إخلاص وقد ذكر سبحانه حاجة المصلي الى الاخلاص والخشوع معا فقال عز وجل : «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وإنهم إليه راجعون»[٤].

كما ذكر سبحانه العلاقة بين غياب الاخلاص وغياب الخشوع فقال : «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون. . . »[٥].

---

٤) سورة البقرة آية ٤٥.

٥) سورة الماعون آية : ٦ (ساهون عن الوقت، ساهون عن الخشوع). فهم ساهون عن صلاتهم لا يصلونها في أوقاتها، وإذا صلوا سهو عن صلاتهم بمراءاة الناس والنظر إليهم والسهو بذلك عن أعمال الصلاة.

وإذا كان الاخلاص والخشوع أمرين مختلفين فالعلاقة بينهما:
ان الخشوع عمل من أعمال الصلاة يلزم فيه الاخلاص كسائر الأعمال فيكون خشوعا خالصا لله، ولذلك كان من اخلاص العبد في صلاته إخفاؤه لخشوعه، لا يزيد فيه عند رؤية الناس، بل حاله في الخلوة كحاله في الخلطة وعلى هذا تحمل الآثار الواردة عن بعض الصحابة كعمر رضي الله عنه الذي رأى رجلا طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، انما الخشوع في القلوب[٦]، فلاشك أنه رآه يتكلف من الخشوع ما ليس مطلوبا في الدين أو ربما رآه يتماوت كما في رواية أخرى فقال له: لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله. وقد قال الفضيل: كان يُكره أن يُرِيَ الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. يقصد بقوله ذاك: أن يكونَ خشوعا صادقا لا تكلف فيه ولا وسوسة قال ابن رجب[٧]. «ومتى تكلف الانسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه كان ذلك خشوع نفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه».

علاجان اثنان لدفع الوساوس والخطرات:

والوساوس التي تشوش على القلب خشوعه إما أن تتسلط على القلب قبل الدخول في الصلاة فيأتي المصلي الى صلاته وهي معه ويدخلها وهو مشغول بها وإما أن تطرأ عليه داخل الصلاة فتشغله عنها.

ولدفع كلا النوعين هناك وسيلتان:

٦) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٧٦.
٧) رسالة الخشوع في الصلاة لابن رجب ص١٣.

الأولى : تعتمد على مبدأ التخلص من الشواغل قبل الدخول في الصلاة.

الثانية : تعتمد على مبدإ التحصن ضدها بعد الدخول فيها وهما ولاشك وسيلتان متكاملتان.

فما يعلم المصلي أنه سبب متوقع للشرودٌ يزيله ويدفعه، وما يطرأ عليه أثناء الصلاة يصرف قلبه عنه ويُقبل على صلاته.

فمما يدخل في الوسيلة الأولى:

١ - أن يُبعد عن مجاله السمعي والبصري كل ما سيشغله إذا دخل في الصلاة فيطفىء المذياع والتلفاز، وينبه من يتكلم بجواره، ويفرغ القبلة من الاشياء التي قد تشرد بذهنه وتبعثه على احلام اليقظة، وهذا يحتاج منه الى ملازمة الصلاة في المساجد فإنها أعدت لذلك، ويتخذ في بيته مصلى.

٢ - ان يقدم الطعام على الصلاة إذا كان جائعا، لحديث عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ : «إذا وضع العشاء، وأقيمت الصلاة، فابدأوا بالعشاء»[٨].

وعن نافع أن ابن عمر رضي الله عنه كان يوضع له الطعام وتقام الصلاة فلا يأتيها حتى يفرغ، وإنه ليسمع قراءة الامام[٩].

٣ - أن يقدم الاستراحة على الصلاة، عند غلبة النوم أو التعب - إلا أن يضيق الوقت عن الفرض -، فعن عائشة رضي الله عنها

٨) رواه أحمد ومسلم.

٩) رواه البخاري.

أن النبي ﷺ قال : «إذا نعس أحدكم فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه»[10].

وعن ابي هريرة رضي الله عنــه أن النبي ﷺ قال : «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه ـ أي اشتد عليه النطق لغلبة النوم ـ فلا يدري ما يقول فليضطجع»[11].

٥ ـ أن يقضي الأشغال والحاجات التي يعلم انها ستشغله في الصلاة، قال ابو الدرداء : «من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة، ليدخل في الصلاة وهو فارغ»[12].

٦ ـ أن يفرغ ما في الجوف من ريح وبول وغائط، وينزع الثوب الضيق ويعالج الجرح واللسعة المؤلمة . . . ليدخل الصلاة ساكنا غير مستعجل.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ قال : «لا يصلي أحد بحضرة طعام ولا هو يدافعه الأخبثان»[13].

فإن خرج ذلك عن حد الصحة والاعتياد وصار مرضا غالبا أخذ أحكام السلس، والسلس من أعظم الشواغل التي تضعف خشوع الصلاة، فإن الجسم اذا لم يكن مرتاحا انصرف القلب الى الانشغال به عن الصلاة، والذي يشغله دفع السلس والمحافظة على الوضوء والحذر من انتقاضه يضعف خشوعه جدا.

(١٠) رواه الجماعة.

(١١) رواه أحمد ومسلم.

(١٢) الاحياء جـ ١ ص ١٧٢ دار المعرفة لبنان.

(١٣) رواه أحمد ومسلم وابو داوود.

وعلاج هذا المرض من اختصاص الطب لأن أسبابه متنوعة، ومما يُذكر في التخفيف والوقاية منه :

أ - تنظيم أوقات الأكل، والاقتصار على الوجبات الرئيسية.

ب - تجنب الأطعمة والأشربة القابلة للتخمر كالنشويات والحوامض والمياه الغازية والقطاني.

ج - إجادة المضغ والأكل على مهل.

د - اتقاء الشبع المفضي الى التخمة وملازمة شيء من الجوع وخفة البطن.

هـ - تنظيم أوقات الافراغ.

و - المداومة على قدر من الحركة والرياضة لتنشيط عمليات التمثيل الغذائي.

ز - استشارة الطبيب لمعرفة الأسباب الخاصة بالحالة المعينة.

أما أحكام السلس فهي مبنية على التخفيف، فيتوضأ لكل صلاة مرة ثم يُقبل على صلاته، فإن ضايقه فيها دفعه واحترس حسبما يمكنه وأتم صلاته[١٤].

ولا يجعل هذا السلس سببا في الاسراع بالصلاة أو الانتقاص من خشوعها لأجل الاشتغال الكلي بدفعه، فقد جاءت الرخصة لأجل تحقيق مقصود الصلاة على جميع الحالات والمصلي الذي يجعل هذا السلس محور انشغالاته في الصلاة يجمع عليه آفتين احداهما خارج إرادته والأخرى باختياره.

---

١٤) انظر تفصيل أقوال المذاهب في ضوء المعذور في ص ٢٨٨ جـ ١ من كتاب «الفقه الاسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي» طـ ٢ دار الفكر ١٩٨٥.

٧ ـ وقد يثبت للمصلي حسب التجربة أن أمورا ـ غير ما ذكرنا ـ تشغله في صلواته فعليه أن يبعدها ويزيلها، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ صلى في خميصة لها أعلام، فقال: شغلتني أعلام هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته[١٥].

فهذا الحديث أصل في معالجة الشرود في الصلاة بإزالة ما يسببه ولـذلك جاء في سيرة الصحابة والسلف الصالح امثلة كثيرة لما كانوا يفعلونه عندما تشغلهم أشياء عن الوقت أو الجماعة أو الخشوع.

روى مالك عن عبد الله بن ابي بكر أن ابا طلحة الانصاري صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسي طار في الشجر يلتمس مخرجا، فاتبعه بصره ساعة ثم لم يَدْرِ كم صلى فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة ثم قال: يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت».

الخشوع مطلب كبير، ولذلك سيحتاج المصلي للقيام بمثل هذه «التصفيات» بين الحين والحين، غير أن الأمر ليس على جهة الوجوب فمن لم يستطع قطع الشجرة التي تحط عليها هذه الطيور المشوشة، فليحفف هذا التشويش بتقليم أغصانها وتهييج العصافير عنها.

ومما يدخل في الوسيلة الثانية:

إذا كان المنهج الأول يعتمد فكرة القضاء على الاعداء قبل الدخول الى الحصن، وقتل من دخل منهم واخراجه، فإن المنهج الثاني

(١٥) رواه البخاري ومسلم، والخميصة: كساء من خزا وصوف مُعْلَم، وابو جهم: هو عامر بن حذيفة، والانبجانية كساء غليظ له وبر ولا علم له، وأبو جهم كان قد اهدى النبي صلى الله عليه وسلم الخميصة وطلب انبجانية بدلها جبرا لخاطره.

يعتمـد فكرة تحصين الأسوار والاقبال على اصلاح الداخل مع دوام اليقظة والانتباه.

فهذه الوسيلة الثانية تعتمد اسلوب الاقبال على الصلاة وجمع القلب عليها لاغلاق المنافذ في وجه الشواغل والوساوس الأخرى.

وهذه الوسيلة تحتاج إلى تدريب الذهن على ايقاف التفكير في سائر ما هو خارج أعمال الصلاة وأقوالها، ويستعين على ذلك بالقاعدة الآتية :

كل ما يشغـل المصـلي ويذهب بحضـوره وخشـوعه إما أمر مضى، فالتفكر فيه لا يلزم بالضرورة هذه الساعة، وإما امر يأتي فلا يمكن فعله إلا بعد الصلاة. فإذا وعى المصلي هذا وعلم أن ما يشغله في الصلاة إما أمر مضى أو أمر يأتي، وكلاهما يقبل التأجيل (لأن ما لا يقبل التأجيل يدخل في الوسيلة الأولى)، جعل الصلاة هجرة الى الله وسفراً الى الآخرة، يبدأه بالتكبير ويعود منه بالتسليم.

الصلاة أكبر من كل شيء آخر، لأن فيها ذكر الله «ولذكر الله أكبر»[16]، ومن أجل ذلك تستحق تفرغ الجسم، لا يشتغل بغير أعمالها

---

١٦) وتمام الآية : «واقم الصلاة. ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر».
«وفيها اربعة أقوال :
أحدها : ذكر الله أكبر من كل شيء فهو أفضل الطاعات لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره فهو سر الطاعات وروحها.
الثانـي : أنكم إذا ذكرتموه ذكركم فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له.
الثالث : ولذكر الله أكبر من ان يبقى معه فاحشة ومنكر بل يمحو كل منكر وخطيئة.
الـرابـع : أن في الصـلاة فائدتان : النهي عن الفحشاء والمنكر وذكر الله، وهذه الفائدة الثانية أكبر.
الخامس: ان الصلاة أكبر الذكر. أفاده في تهذيب المدارج ص ٤٦٥.

«وقوموا لله قانتين»، وتفرغ القلب لا ينشغل إلا بها لا بما مضى قبلها ولا بما يأتي بعدها.

لكن؛ أين هذا من صلاتنا والشرود مثل النوم لا يدري المرء متى يختطف عقله، وهنا لا يملك المصلي سوى رد الذهن عند الانتباه وتركيزه من جديد في أقوال الصلاة وأفعالها.

تشتت الانتباه:

يستطيع الانسان تمييز صوت معين من بين أصوات عديدة، كما يستطيع أن يركز انتباهه حول مشهد من بين مشاهد كثيرة متداخلة، وعلى المستوى الداخلي أيضا يستطيع أن يركز تفكيره في موضوع بعينه، فتصبح الأفكار والخواطر الأخرى هامشية، لأن الموضوع الذي استأثر بانتباهه قد احتل بؤرة الشعور.

هناك اذن استعداد عقلي لدى الانسان لتركيز انتباهه حول مسموع أو مشهد أو فكرة غير أنه في حالة الانتباه الارادي يحتاج الى بذل جهد كبير ويتوقف مقدار الجهد المبذول على شدة الدافع الى الانتباه ووضوح الغاية منه، وحصر الانتباه لا يدوم طويلا ولذلك تنوعت أعمال الصلاة حتى ينتقل الانتباه بينها دون أن يطول عليه موقف واحد فينصرف الانتباه الى خارج الصلاة.

وعلم النفس عندما يتحدث عن مشتتات الانتباه يذكر:

- أسبابا جسمية: كالتعب والارهاق والسهر وسوء التغذية والامراض وقد مر بنا هدي الاسلام في هذا النوع من العوامل المانعة من الخشوع.

- أسبابا طبيعية : كسوء التهوية وارتفاع درجة الحرارة وانخفاض درجة البرودة وكثرة الضوضاء، وقد فوض الاسلام للمصلي التصرف حيال هذه العوامل البيئية بما يزيل أثرها على خشوع الصلاة.

- أسبابا اجتماعية : ترجع الى المشاكل التي تحدث للانسان في حياته اليومية فتسبب له تشتتا في الانتباه وشرودا في التفكير وقد علم المسلم تعاليم الاسلام في هذا المجال الاجتماعي وعلم قوله عليه الصلاة والسلام «من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[١٧]

فقد تمضي صلاة بكاملها في استعراض أمور زائدة أو أخبار أو مشاكل لا صلة للمصلي بها لولا فضوله، كما قد تذهب صلاة أخرى في تدبير أمور دنيوية لا حاجة اليها بالمرة، وفي هذا الموطن يبدو الخشوع في الصلاة مرتبطا بالحياة التي يحياها المسلم في يومه كله، فعليه أن يستعين على خشوعه بشيء من الزهد والتخفف من فضول الدنيا حتى لا تتعقد حياته وتصير شبكة من الشواغل بعضها آخذ بركاب بعض.

- اسبابا نفسية : كالقلق والاكتئاب والخوف والحزن. . . وهذه الحالات الانفعالية لا يكاد يخلو منها أحد، لكن العقيدة الاسلامية بما فيها من ايمان بالله واليوم الآخر تقيم داخل النفس توازنا انفعاليا يخفف من أثر الانفعالات غير المرغوب فيها، ويبقى الجانب القسري من هذه الأسباب المشتتة للانتباه وهي الأفكار الوسواسية، فقد يكون الشرود بسبب وسوسة دائمة.

وإذا كان السلس مرضا جسميا فإن الوسواس مرض نفسي، وكلاهما يؤثر بشكل سلبي في خشوع الصلاة.

---

١٧) رواه الترمذي في الزهد وابن ماجة في الفتن ومالك في حسن الخلق ورواه أحمد في مسنده.

وقد تحدث علماؤنا عن هذا المرض النفسي انطلاقا من تعاليم الاسلام الحنيف، إلا ان كلامهم لم يخل من بعض التحامل[18] لأنهم كانوا يخاطبون هؤلاء الموسوسين بوصفهم أناسا أسوياء يفعلون ذلك بمحض إرادتهم.

والحقيقة أن الوسواس قد يكون إراديا ناشئا عن جهل بالشرع وقد يكون قسريا ناشئا عن مرض نفسي[19]، ولا يفهم حالة المُوَسْوَس وما يفعل إلا الذي ابتلي بمثل ذلك ومر من تلك الحال.

والوسواس واحد من الأمراض النفسية المعروفة في علم النفس، وموضوعاته لا تنحصر ومنها موضوعات الدين، فقد يوسوس الشخص في عقيدته أو وضوئه أو صلاته أو غير ذلك.

فإذا تعلقت الوسوسة بأمر ديني فسببها شيطان، وتكون من الابتلاء الذي يبتلى به العبد في دينه، لتظهر منزلته عنده ومدى ثباته عليه.

والغالب أن يتسلط هذا الوسواس على المسلم الذي ابتدأ السير في طريق الهداية، مما يقطع بأنه من كيد الشيطان يريد أن يقطع عليه سيره كما قال تعالى: «ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة».

وبهذا فإن الوسواس ابتلاء تحكمه سنة الله العامة في الابتلاءات، فصاحبه مأجور على قدر ما أصابه منه. وصبره وثباته

---

18) انظر تلبيس ابليس لابن الجوزي واغاثة اللهفان لابن القيم.

19) ممن انتبه الى أن الوسواس قد يكون اراديا وقد يكون قسريا الامام الغزالي فقد نقل عنه ابن القيم قوله: «الوسوسة سببها إما جهل بالشرع وإما خبل بالعقل» جـ1 ص 159 من اغاثة اللهفان لابن القيم.

عليه هو الطريق الى دفعه وعندما يندفع يخلف قوة في الايمان وصلابة في الدين.

وفي وسواس الصلاة خاصة جاء حديث يبين كيفية دفعه ومقاومته، فقد روى مسلم عن عثمان بن ابي العاص الثقفي أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال له رسول ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثا، قال: ففعلت، فأذهبه الله عني».

وكما تحدث العلماء عن رخصة المبتلى بالسلس تحدثوا عن رخصة المبتلى بالوسواس، فإذا حصل للمصلي الشك في وضوئه أو صلاته، فإنه يبني على ما استيقن ويتم وضوءه أو صلاته، أما إذا تواتر الشك وأفضى الى وسوسة ملازمة فإنه لا يلتفت اليه، لأنه بصدد مقاومة مرض، ولو استجاب لهذه الوسوسة كل مرة لزادت فربما أعاد الصلاة الواحدة مرارا عديدة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وجد أحدكم في بطنه شيئا فأشكل عليه: أخرج منه شيء أم لا؟ فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا»

وفي الصحيحين عن عبد الله بن زيد قال:

«شُكي الى رسول الله ﷺ: الرجل يخيل اليه انه يجد الشيء في الصلاة قال: لا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا».

وفي المسند وسنن ابي داوود عن ابي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يأتي أحدكم وهو في الصلاة، فيأخذ بشعرة

من دبره فيمدها، فيرى أنه قد أحدث، فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا».

ولفظ ابي داوود : «إذا أتى الشيطان احدكم فقال له : إنك قد أحدثت، فليقل له : كذبت إلا ما وجد ريحا بأنفه أو سمع صوتا بأذنه».

قال ابن القيم عقب إيراد هذه النصوص : «فأمر عليه الصلاة والسلام بتكذيب الشيطان فيما يُحتمل صدقه فيه، فكيف إذا كان كذبه معلوما متيقنا كقوله للموسوس لم تفعل كذا وقد فعله ؟»[٢٠].

ومن المصلين من تكون وسوسته في الخشوع نفسه، فيعيد الصلاة مرارا يرى أنه لم يخشع فيها، ومن كانت حالته هكذا صلى صلاة واحدة ولا يعيد حتى يقطع مادة الوسواس.

ورغم أن علم النفس تقدم كثيرا في تشخيص هذا المرض وتصنيفه إلا أنه لا يملك الى الآن وسائل ناجعة لعلاجه، وما يقدمه الاسلام يبقى أفضل من اقتراحات علماء النفس بكثير.

والعلاج في الاسلام هو العلاج العام لوسوسة الشيطان، ويتلخص في كلمتين : الذكر والمخالفة، ذكر الله ومخالفة عدوه، فذكر الله يطرد الشياطين عنه ومخالفته لهم تيئسهم منه، كما قال ﷺ لعمر : «ما لقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك»[٢١].

وقد قال عبد الله بن مسعود : «شيطان المومن مهزول»، يقصد أنه يُضعفه بالذكر والمخالفة ويدخل في الذكر ما يلي :

---

٢٠) اغاثة اللهفان جـ١ ص ١٦٢. مكتبة عمر بن الخطاب

٢١) رواه البخاري ومسلم.

١ ـ الاستعاذة بالله من هذا الوسواس والاكثار من ذلك كلما احسه في الصلاة أو غيرها.

قال الله تعالى: «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله»[٢٢]

وقال سبحانه: «وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب ان يحضرون»[٢٣].

٢ ـ الاستغفار، فإن ما يصيب العبد من بلاء فبأعماله، ولا يتسلط عليه الشيطان بهذه الوسوسة الا لنقص في عبوديته لربه «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان»[٢٤]، فليجعل من هذه الوسوسة سببا للاستغفار والتوبة. «ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون»[٢٥].

وأما المخالفة فتعني لزوم الشرع ونبذ ما جاء بخلافه من الوساوس والخطرات، وإن مما جاءت به هذه الشريعة: التيسير ورفع الحرج، والتجاوز عن الخطإ والنسيان وما أكره عليه المسلم، والوسلوس التي تعتري المصلي في صلاته لا تعدوا أن تكون أحد هذه الثلاثة، يقول ابن القيم[٢٦]: «فمن اراد التخلص من هذه البلية فليستشعر أن الحق في اتباع رسول الله ﷺ في قوله وفعله، وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لايشك أنه على الصراط المستقيم....».

---

٢٢) سورة الأعراف آية: ٢٠٠.
٢٣) سورة المومنون آية: ٩٧.
٢٤) سورة الحجر آية ٤٢.
٢٥) سورة الأعراف آية ٢٠٢.
٢٦) اغاثة اللهفان جـ١ ص ١٥٥.

الطريق الرابع
تدبر معاني الأقوال وأسرار الأفعال في الصلاة

النفس كالرحى إما ان تطحن قمحا وإما ان تطحن تبنا، **فإذا** لم يشغلها المصلي بالتفكر في الصلاة جال تفكيرها في غير ذلك، ووجد الشيطان فجوة لالقاء وساوسه وخطراته.

والصلاة أقوال وأفعال، فللأقوال معنى، وللأفعال مغزى، وإذا كانت النفس ستنشغل ولابد فإن في الصلاة لشغلا، فليكن شغلها في تدبر أقوال الصلاة وأفعالها.

على المسلم أن ينفض عن صلاته غبار التكرار لتكون في كل مرة خاشعة، وهذا يقتضي منه الاحاطة بطرف من المعاني العظيمة التي تحملها أعمال الصلاة، ليستحضرها حسب المستطاع عند أداء كل واحد منها.

١ - القيام:

إذا وقفت بين يدي الله فتحقق أنه سبحانه مقبل بوجهه عليك، يسمعك ويراك فاعبده بالاحسان كأنك تراه ولا تلتفت عنه بعينك أو قلبك فيصرف وجهه عنك.

وإذا استقبلت البيت بجسمك فاستقبل ربه بقلبك، فإن التوجه في أصله لله، والكعبة رمز لذلك.

فإذا اجتمع قلبك على صلاتك وتوجه لله بكليته، وقد تفاعلت فيه مشاعر الخوف والرجاء والرغبة والرهبة والثناء والحياء، فخذ من هذا الوقوف مثالا للوقوف بين يدي الله يوم الحساب، وادخل في صلاتك ناويا أن تكون من زادك لهذا اليوم.

روى الحاكم ـ وقال صحيح الاسناد ـ عن سعد بن ابي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ للذي اوصاه: «اذا صليت فصل صلاة مودع».

ومن صلى الصلاة متوقعا ان تكون آخر عهده بالدنيا اقبل عليها بكل خشوع واحسان.

وإنه لمعنى عظيم أن يذكر المصلي الموت بكل صلاة يصليها، فتلفه مشاعر الوداع لنفسه وعمره، وينصرف الى خاتمة أعماله فيجيدها ويتقنها، وفي نفسه أنه لم يبق من دنياه الا مقدار ما يصلي فيه هذه الصلاة.

٢ - التكبير:

فإذا رفعت يديك وقلت: الله أكبر، فاعلم انك تمتثل بذلك امر الله إليك في قوله: «وربك فكبر»[١].

وما قلته في هذا التكبير يعني أن الله سبحانه أكبر في قلبك من كل شيء وما دخلت فيه من عبودية الصلاة أكبر عندك من كل شيء أيضا، فاحذر أن تكذب نفسك داخل الصلاة أو خارجها.

١) سورة المدثر آية: ٣.

واجعل رفع اليدين عند التكبير احدى عبوديات يديك في الصلاة ورمزا لاطراح الدنيا جانبا والاقبال على الله . . .

٣ - دعاء الاستفتاح :

وسواء كان الدعاء الذي قرأت ثناء على الله كقولك : «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»[٢].

أو سؤالا منه كقولك : «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الابيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[٣].

سواء افتتحت بالثناء أو بالدعاء، فمعانيها جميعا تناسب موضعها من الصلاة فاقرأ هذا مرة وهذا مرة وتدبر تلك المعاني فإنها واضحة.

٤ - الاستعاذة :

فإذا قرأت الاستعاذة فاعلم انك تمتثل امر الله إليك في قوله : «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم»[٤].

وتذكر أنك ما وقفت هذا الموقف العظيم إلا بعد ان أجبت داعي الله وعصيت داعي الشيطان، فاذا كنت قد كسبت الجولة الأولى في معركتك مع عدو الله فلم يصدك عن ذكر الله وعن الصلاة،

٢) رواه أبو داوود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والجد : العظمة
٣) رواه الشيخان
٤) سورة النحل آية ٩٨.

فاحرص على كسب الجولة الثانية حتى لا يشغلك في الصلاة فيفسدها عليك ويذهب بخشوعها.

ادفع وسوسته بهذه الاستعاذة في أول الصلاة، فان عاد فادفعه بها ثانية كما جاء في حديث عثمان بن ابي العاص قال : قلت يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وبين قراءتي يلبسها علي، فقال ﷺ ذاك شيطان يقال به : خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا. قال : ففعلت فاذهبه الله عني»[*].

فأقصر طريق لكف أذى العدو هو الاحتماء بخالقه والقادر عليه، وان الله عز وجل الذي خلق الشيطان واذن له بهذه الوسوسة قادر على كفه اذا سأله المصلي ذلك، وقد ضرب بعض العلماء لذلك مثلا فقالوا : الكلب الذي يمنعك من الدخول الى بيت إما ان تهدده او تضربه أو تتألفه. . . وأفضل من ذلك كله أن تدعو صاحب البيت ليصرفه، فالاستعاذة بالله من الشيطان في أول الصلاة لها حكمة عظيمة، يجب التفطن لها.

٥ ـ الفاتحة :

ثم تقرأ سورة الفاتحة فإنها ركن لا تصح الصلاة إلا بقراءتها.

أخرج البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلى : «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

(*) أخرجه مسلم.

وسميت بالسبع المثاني لأنها سبع آيات تكرر ويُثنى بها في ركعات الصلاة وقد وضعت في المصحف الشريف في مكان المقدمة له، وهي كذلك، فإنها تلخص معانيه، وتركز في آياتها السبعة مضمونه ومحتواه، ولهذا قال بعض العلماء : أنزل الله الكتب ثم جمع معانيها في القرآن الكريم، وانزل القرآن الكريم وجمع معانيه في سورة الفاتحة وانزل الفاتحة وجمع معانيها في قوله : «إياك نعبد وإياك نستعين»[٦].

فَحُقَّ لهذه السورة أن تكون أم القرآن، واختيارها دون سواها لتكون ركنا من اركان الصلاة يحمل حكمة جلية، ذلك ان الصلاة تقام لذكر الله وسورة الفاتحة كلها ذكر لأسمائه عز وجل وصفاته ونعمه وآلائه وأفعاله وأحكامه، فَتَدَبُّر آياتها يُحْيي في النفس مجمل معاني القرآن الكريم، ويبعث في القلب مشاهد ومواقف كلها معين على الخشوع.

بسم الله الرحمن الرحيم :

إنها آية الافتتاح لهذا الكتاب الكريم، فباسم الله كان بدء الخلق، وباسم الله كان بدء الوحي، باسم الله خَرَجَ الكون من العدم الى الوجود، وباسم الله افتُتحت أروقته العظيمة، وباسم الله كان اتصاله بخالقه وتلقيه كلمته : «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم».

---

٦) جاء مأثورا عن الحسن البصري ذكره ابن تيمية في التفسير الكبير (جـ ٢ ص ٣٠١ طـ أولى دار الكتب العلمية) وعزاه الى ابن ماجة وغيره.

فلتكن قراءتك في كتاب الكون وسياحة عقلك في رحابه باسم الله، وليكن سعيك وسياحة جسمك فيه أيضا باسم الله.

إنه أدب الاسلام في افتتاح كل علم وفي افتتاح كل عمل، أدب يكرس عقيدة التوحيد وينفي ضلال الشرك والكفر والالحاد.

إن ورود هذه الآية الكريمة في مفتتح كتاب الله يترك في النفس انطباعا متفائلا : أن رحمة الله سبقت غضبه، وانه سبحانه يعامل خلقه بصفات الرحمة والعفو والاحسان، إلا أن يستوجبوا بأعمالهم المعاملة بضدها من المؤاخذة والمعاقبة والانتقام.

وإن أول هذه الرحمة إنزاله عز وجل هذا الكتاب هدى ورحمة لقوم يومنون.

لقد ورد في هذه الآية ثلاثة أسماء إلهية : الله والرحمن والرحيم، والرحمن الرحيم أنسب اسمين لهذا الموضع، فهذا الذي جاء يصلي لله تعالى أو يتلو كتابه لا يرجو غير رحمته فها هي أول آية تبشره وتطمئنه وتقول له : ابشر بالذي يسرك، فإن الله رحمن رحيم.

الحمد لله رب العالمين :

وإذا كانت «بسم الله» مفتتح الأعمال في أدب الاسلام فإن «الحمد لله» خاتمتها ولذلك تجاورتا في سورة الفاتحة، لتكونا أدبا وعقيدة، فهتان الكلمتان تلخصان عقيدة المسلم في القدر، باسم الله يبدأ كل عمل وبحمد الله ينهيه فمشيئة الله عز وجل حاضرة معه في البدء والختام.

الحمد لله :

يقولها المسلم وبين عينيه دوائر ثلاث من النعم، كل دائرة أشمل من الأخرى وكل واحدة تضم عددا من النعم لا يحصى :

الدائرة الأولى : نعم أنعم الله بها عليه بوصفه كائنا حيا، فهو يشترك فيها مع سائر المخلوقات الحية.

الدائرة الثانية : نعم أنعم الله عليه بها بوصفه انسانا فهو يشترك فيها مع بني آدم.

الدائرة الثالثة : نعم أنعم الله عليه بها بوصفه مومنا فهي خاصة بالمومنين، فالدائرة الأولى تتفرع نعمها عن نعمة الخلق والايجاد والثانية تتفرع عن نعمة الآدمية والانسانية والثالثة تتفرع عن نعمة الهداية والايمان.

فالحمد لله على نعمة الخلق والايجاد : فكم من ترتيبات أقامها عز وجل في ارضه وسمائه على اساسها صلحت لحياة الانسان، وكم من ترتيبات اقامها عز وجل في ارحام الامهات على أساسها يخرج الانسان مزودا بما يعينه على الحياة والاستمرار.

والحمد لله على نعمة الآدمية والانسانية، وما فيها من تكريم للانسان وتفضيل له على غيره، حيث خلقه ربه بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وميزه بالعقل والنطق والارادة وجعله خليفته على شرعه في الأرض وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، وجعله عز وجل لنفسه واختصه لعبادته وكلَّمَهُ منه وإليه ووعده إن أدى حق العبادة أن يجعله في جنته وجواره ورضوانه.

والحمد لله على نعمة الهداية والايمان وما تبع ذلك من نعم يشير إليها مثل قوله تعالى : «وكان حقا علينا نصر المومنين»[٧] . وقوله : «حقا علينا ننج المومنين»[٨]. وقوله : «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور»[٩] . وقوله : «إن الله يدافع عن الذين آمنوا»[١٠]. وقوله : «الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[١١] . وقوله : «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[١٢].

الحمد لله رب العالمين :

فالخير كله من الله عز وجل والشر كله من المخلوقين، فهو المحمود على كل حال، لأن افعاله نِعَم وحِكَم «لبيك وسعديك والخير كله بيديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت»[١٣].

ولهذا افتتح القرآن بالحمد لله واختتم بالتعوذ من شر المخلوقين.

رب العالمين :

والعالمون جمع عالم، الذرة عالم، لها سكانها ولها حركتها ولها قوانينها، والخلية عالم، لها حدودها ومكوناتها وعملياتها، والنحل عالم-

٧) سورة الروم آية : ٤٧.
٨) سورة يونس آية : ١٠٣.
٩) سورة البقرة آية : ٢٥٧.
١٠) سورة الحج آية : ٣٨.
١١) سورة يونس آية : ٦٢.
١٢) سورة فصلت آية : ٣٠ - ٣١.
١٣) جزء من دعاء رواه مسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وأحمد والدارمي

والنمل عالم والحيوانات كلها عالم بطيورها وانعامها ووحوشها واسماكها، والأرض عالم بجبالها وسهولها ووديانها وبحارها، والانسان عالم بشعوبه وقبائله وأجناسه والوانه وأفراده، والسماء الدنيا عالم : بنجومها وشموسها وكواكبها ومجراتها وحشودها الكونية . . . والسموات السبع عالم بأرواحها وملائكتها وجنتها ونارها . . .

فكل ما سوى الله عالم والله رب العالمين، ومعناه انه خالقه ومالكه وسيده والمتصرف فيه، فإذا كان المربوب كبيرا وعظيما فالرب أعظم وأكبر، وربوبيته عز وجل للعالمين ربوبية حقيقية، فلا يجري في ملكه شيء إلا بعلمه واذنه، كما انها ربوبية عامة، فلا يشذ عن هذه الربوبية شيء من المخلوقات أبدا، وهي ثالثا ربوبية دائمة لا تقتصر على هذه الدنيا بل انه عز وجل رب الدنيا والآخرة.

يرى المسلم هذه العوالم كلها وهو يتلو هذه الآية «الحمد لله رب العالمين» بعضها يراه بعينه وهي عالم الشهادة وبعضها يراه بعين رسول الله ﷺ وهو عالم الغيب وبهذا المعنى كانت الصلاة معراج كل مسلم .

الرحمٰن الرحيم :

وقد تكرر الاسمان الجليلان مرة أخرى بعد ذكر ربوبيته للعالمين ليُعلم أن هذه الربوبية ربوبية رحمة وإنعام وليست ربوبية ظلم وطغيان كالذي يفعله الانسان إذا أصاب شيئا من التصرف والسيادة على أخيه الانسان .

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم :

إنه درس لنا عندما يلي بعضنا بعضا أو يقدر بعضنا على بعض

في نفس أو مال أو حرية أن يتصرف برحمة، فإن الله رب العالمين وهو الرحمن الرحيم.

ملك يوم الدين :

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟»

وسمي بيوم الدين لأن غاية وجوده هي الجزاء كما كانت غاية عالم الدنيا هي الاختبار، قال الله تعالى : «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق. ويعلمون أن الله هو الحق المبين»[14].

لقد رُكب عالم الشهادة ليكون كل شيء فيه مناسبا للعمل والاختبار كما قال عز وجل : «انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا»[15].

كما ركب عالم الغيب ليكون كل شيء فيه مناسبا للحساب والجزاء كما قال الله تعالى : «لمن الملك اليوم. لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب»[16].

وإذا كان الله سبحانه خالق الدنيا والآخرة، وعالم الغيب والشهادة، ورب العالمين وملك يوم الدين، فليس امام العبد موقف معقول وقول مقبول إلا أن يقول : إياك نعبد وإياك نستعين.

14) سورة النور آية : ٢٥.
15) سورة الكهف آية : ٧.
16) سورة غافر آية : ١٦.

ولذلك تأتي في مكانها من السورة، ليقولها المصلي ويترجم بها موقفه.

وهذه الآية - كما سبقت الاشارة - تلخيص لسورة الفاتحة بل للقرآن كله، فإن القرآن الكريم انما جاء لبيان الفرق بين الألوهية والعبودية، بين الرب والعبد، وهذه الآية تبين هذا الفرق بأوجز لفظ وأبلغه، فَمِن العبد العبادة لأنه مخلوق مربوب ومن الله الاعانة لأنه الخالق الرب القوي القدير.

أما عبادة الله فهي غاية حبه مع غاية الذل له، فلها جانب باطن يتصل بالقلب وهو المحبة. وآخر ظاهر يتصل بالجوارح وهو الخضوع.

وأما الاستعانة بالله فهي الثقة به سبحانه والاعتماد عليه، فلها أيضا جانب يتصل بالقلب وهو الثقة في الله تعالى، وجانب ظاهر يظهر على السلوك وهو التوكل والاعتماد عليه، وقد اجتمعت العبادة والاستعانة في عدة مواضع من كتاب الله تعالى مثل قوله عز وجل: «ولله غيب السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون»[17].

إن قول المسلم في صلاته: «إياك نعبد وإياك نستعين» صيغة أخرى لقوله: لا إله إلا الله.

فلا إله إلا الله تعني أن الله واحد في ربوبيته وذلك قوله إياك نستعين وأنه سبحانه واحد في ألوهيته وذلك قوله إياك نعبد.

---

17) سورة هود آية ١٢٣.

وإنما قدم العبادة على الاستعانة : لأن العبادة حق الله ، والأعانة حق العبد، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة لها وفرع عنها، فإن العبد لا يقوم بعبادة الله إلا بمعونة الله ، فهو يستعين بالله على عبادته .

ثم إن العبادة إثبات لمشيئة االعبد والاستعانة إثبات لمشيئة الله ومشيئة الله هي المحيطة والمهيمنة . إن لله كلمات كونية وكلمات شرعية ، فبكلماته الكونية تتم الاعانة ، وبكلماته الشرعية تتم العبادة . وتوحيد الله تعالى يجب أن يشمل توحيده في أمره القدري (وهو توحيد الربوبية) وأمره الشرعي (وهو توحيد الالوهية) . فالآية - كما قلنا - صيغة أخرى لقول لا إله إلا الله[18]

وقد جاء سياق الآية وفيه عدول عن الاخبار بصيغة الغائب الى صيغة جديدة تجعل الآية على لسان قارئها خطابا منه إلى ربه ، وذلك لعدة معان :

أولا : إن هذه الصيغة تُشعر قارئها أنه يناجي ربه وأنه يخاطبه بهذا العهد ويجدد أمامه التمسك به .

ثانيا : إن هذه الصيغة تثبت العبادة والاستعانة لله وحده وتنفيهما عن غيره في ذات الوقت، فإياك نعبد تتضمن اننا لا نعبد غيرك ، وإياك نستعين تتضمن اننا لا نستعين بغيرك .

ثالثا : عندما يقرأ المسلم هذه الآية في صلاته فإنه يصف حالته في تلك اللحظة ويتعهد أن يثبت في مقام العبودية خارج صلاته حتى لا يكذب نفسه فإن العبودية لله ليست خاصة بالصلاة فحسب .

(18) انظر مقدمة مدارج السالكين لابن القيم .

إن أفضل مقام يقف فيه الانسان هو مقام العبودية لله، فعندما يقف في الصلاة - وهي أبرز مظهر لهذه العبودية - ويقول : إياك نعبد، فإنه يرتفع الى مقام وصف الله به ملائكته وأنبياءه، وانما يتحدد قربه منهم على قدر ما صَدَّقَ من دعواه هذه أو كذّب.

إن هذه الآية موقف، والمواقف تَصْدُق وتَكْذِب، ويظهر ذلك عند الاختبار ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي : «يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين، قال الله : حمدني عبدي، وإذا قال : الرحمن الرحيم قال الله : اثنى علي عبدي، وإذا قال مالك يوم الدين قال الله : مجدني عبدي، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[19].

إياك نعبد : لأن العبادة حق الله علينا جميعا : «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون»[20].

إياك نعبد : لأن العبادة طريقنا لشكر نعمة الله : «بل الله فاعبد وكن من الشاكرين»[21].

---

١٩) ورواه مسلم في صحيحه ومالك في الموطأ وغيرهما.

٢٠) سورة الذاريات آية : ٥٦.

٢١) سورة الزمر آية : ٦٦.

إياك نعبد : لأن عبادة الله تحررنا من عبادة ما سواه : «قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون»[٢٢]، «قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه»[٢٣].

إياك نعبد : لأن بهذه العبادة نفوز بمحبته : «ما تقرب الى عبدي بشيء احب الي مما افترضته عليه، و لا يزال يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه . . .»[٢٤].

إياك نعبد : لأن عبادته سبحانه هي التي تمحو سيئاتنا وتبارك أعمارنا وتسلك بنا طريق المفلحين : «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون»[٢٥].

اهدنا الصراط المستقيم :

وإذا كانت «إياك نعبد وإياك نستعين» تعني شهادة أن لا إله الا الله، فإن «اهدنا الصراط المستقيم» تعني شهادة أن محمدا رسول الله، والاسلام كله قام على أساسين، أحدهما : أن يُعبد الله، والثاني : أن يعبد بها شرع، فالأول فيه الاخلاص لله تعالى في العبادة والثاني فيه متابعةالرسول ﷺ في كيفية أدائها فإن ـ الصراط المستقيم هو الاسلام أو هو القرآن الذي جاء به النبي ﷺ.

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في صورة دعاء اختاره عز وجل لنا دون سواه لندعوه به وفي ذلك عدة معاني ومقاصد :

٢٢) سورة الزمر آية : ٦٤.
٢٣) سورة الزمر آية : ١٤.
٢٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق.
٢٥) سورة الحج آية : ٧٧.

أولا : انه دعاء جامع قد تضمن سائر الأدعية التي يمكن للانسان ان يقترحها لهذا المقام، فالعبد إذا أوتي الهداية فقد أوتي أسباب الاجابة وموجبات العناية فيأتي مع الهداية الحفظ والتيسير والرزق الواسع وغير ذلك.

ثانيا : ان نعمة الهداية هي اعظم نعمة على الاطلاق، لأنها تتعلق بمصير الانسان في الآخرة، وبوجودها تكون النعم الأخرى نعما حقيقية، أما بدونها فالنعم الأخرى نقمة وبلاء، فلابد من الهداية لتصير نعم الصحة والمال والولد والعلم وغيرها نعما في حق صاحبها.

ثالثا : إن المسلم بحاجة الى هداية الله حتى الممات، فهو يسألها من ربه في كل صلاة، ومن يعرف قيمة الهداية أولا ويعرف سنة الله في منحها وسحبها لا يرى كثيرا عليه أن يسألها في كل يوم عشرات المرات.

ثم إن الهداية العامة الى صراط الله لاتعني الاهتداء الى الحق في القضايا اليومية المتجددة، فالمسلم بحاجة بعد الهداية العامة، الى هداية تفصيلية تبين له وجه الحق فيما يعرض له من الشبهات والفتاوى وأمور الاختلاف وقد ورد في دعاء التهجد : «. . . اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك، إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم»[٢٦].

والهداية اربع مراتب :

● هداية إلهام : وهي هدايته عز وجل كل مخلوق لما خلق له : «قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»[٢٧].

٢٦) رواه مسلم في كتاب المسافرين والنسائي في قيام الليل وابن ماجة في الاقامة ورواه أحمد في المسند.

٢٧) سورة طه آية : ٥٠.

● **هداية بيان** : وهي بيانه عز وجل للحق وما يقابله من الباطل، وهـذه مهمة الكتب والرسل، قال الله تعالى : «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان»[28].

وقال سبحانه : «وإنك لتهدي الى صراط مستقيم»[29].

● **هداية توفيق** : وهي توفيق الله سبحانه من شاء من عباده للانتفاع بهداية البيان والبلاغ، فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته، يعلم من يستحق شرف تبليغها ومن يستحق شرف اتباعها.

وإذا كانت هداية البيان شرطا في الهداية إلا أنه غير موجب، بل تقوم به الحجة وهداية التوفيق موجبة لحصولها.

ولذلك لا تعارض بين قوله تعالى : «وانك لتهدي الى صراط مستقيم».

وقوله : «انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»[30].

● **هداية جزاء** : وهي هداية أهل الجنة الى دارهم وهداية اهل النار الى دارهم. وهداية الجزاء تكون على حسب هداية التوفيق، فمن وفقه الله وسلك به طريق الجنة فإنه يُهدىٰ اليها يوم القيامة.

وبهذا المعنى يمكن أن نفهم قوله تعالى : «والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم»[31].

---

٢٨) سورة البقرة آية ١٨٥.
٢٩) سورة الشورى آية ٥٢.
٣٠) سورة القصص آية ٥٦.
٣١) سورة محمد آية ٥.

وقوله : «فاهدوهم الى صراط الجحيم»[٣٢] .

وواضح أن قوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» يشير الى المرتبة الثانية والثالثة ، فأما الأولى فحاصلة وأما الرابعة فنتيجة ، فيكون المعنى ملتئما من أمرين الأول بيان الطريق المستقيم والثاني التوفيق للسير فيه أي بيّن لنا صراطك المستقيم ووفقنا لنختاره على غيره .

صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين :

والناس تجاه الحق أصناف ثلاثة :
صنف عرفوا الحق واتبعوه ، وهم المنعم عليهم .
وصنف عرفوا الحق وجحدوه وهم المغضوب عليهم .
وصنف أخطأوا الحق ولم يطلبوه وهم الضالون .

صراط الذين أنعمت عليهم :

وقد ذكرهم الله سبحانه في قوله : «ومن يطع الله والرسول فأولائك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقا»[٣٣] .

ولا شك أن قراءة هذه الآية يرسم في مخيلة المسلم مشهدا لهذه الصفوة المختارة من أنبياء الله ورسله من آدم ونوح وإبراهيم وآل ابراهيم وآل عمران كاسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وداوود وسليمان وأيوب وموسى وعيسى وهود وصالح ومحمد وسائر الأنبياء ممن

٣٢) سورة الصافات آية : ٢٣.
٣٣) سورة النساء الآية : ٦٩.

ذكر الله عز وجل في كتابه ومن لم يذكر، ثم معهم أتباعهم من كل صدِّيق وشهيد وصالح.

وإنها شجرة طيبة تمتد بجذورها الى بداية البشرية، وتمتد بفروعها الى كل زمان ومكان لتجعل كل مسلم فرعا من فروعها وغصنا من أغصانها وهذا هو المعنى الذي توحي به صيغة الجمع التي يقرأ بها المسلم ولو كان منفردا: «اهدنا الصراط المستقيم».

وإثارة مشاعر الأخوة القائمة على الهداية والايمان تزيل عن المسلم الغربة وتطرد عنه الوحشة وتشد على قلبه وتثبته، وتملأه بالشوق الى لقاء الله ولقاء هؤلاء الأحبة.

غير المغضوب عليهم ولا الضالين:

وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون».

لكن الذي شابههم في صفة الغضب أوصفه الضلال يلحق بهم لأن الآية عامة وإنما كان اليهود أمة غضب لأنهم عرفوا الحق فجحدوه واتبعوا أهواءهم، وكان النصارى أمة ضلال لأنهم أرادوا الخير فلم يسلكوا طريقه.

فعند النصارى فساد العلم وعند اليهود فساد القصد، ومنشأ الباطل كله من هتين الآفتين، كما قال الله تعالى: «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى»[٣٤].

---

٣٤) سورة النجم آية: ٢٣.

وجـاءت صيغـة «المغضـوب عليهم» مبنية للمجهـول، لأن الغضب ليس من الله وحده بل من الله وملائكته وأنبيائه وأوليائه.

ومرة أخرى نرى الآية الكريمة ترسم المشهد المقابل وفيه الكفار والمنافقون والظالمون وسائر من حق عليه الغضب والضلال.

فتكـون الآية قد قابلت بين الهـداية والنعمـة وبـين الضلال والشقاء ثم رسمت مشهد كل فريق ممن أوتي الهداية والنعمة، أو أوتي الضـلال والشقاء، وتلك حصيلة هذا السوق الدنيوي كما قال الله تعالى: «فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى»[٣٥].

إنـه دعـاء عظيم ولـذا جاءت سورة الفاتحة مستجمعة آداب الدعاء فنصفها الأول ثناء على الله عز وجل ونصفها الثاني مسألة منه سبحانه. والثناء المتقدم في الشطر الأول فيه توسل اليه عز وجل بأسمائه وصفـاته من جهة، وتوسل إليه بعبادته من جهة ثانية، كما قال الله تعالى: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها»[٣٦].

وكما قال سبحانه: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليومنوا بي لعلهم يرشدون»[٣٧].

فإذا فرغ المصلي من النصف الذي لربه (الثناء) والذي لنفسه (الدعاء) وإنه ليكاد يسمع ربه يقول له: حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي... هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

---

٣٥) سورة طه آية: ٢٣.
٣٦) سورة الأعراف آية: ١٨٠.
٣٧) سورة البقرة آية: ١٨٦.

يقول : آمين. ومعناها استجب يا رب.

٦ - قراءة السورة :

وبمثل ما قرأ الفاتحة يقرأ السورة، وهذا يقتضي منه معرفة تفسير السور التي يقرأ بها في صلواته.

٧ - الركوع :

فإذا ركعت فاعلم انك تمتثل أمر الله اليك في قوله عز وجل : «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا»[٣٨].

وليكن ركوعك عبودية أخرى تُظهر فيها تواضعك بين يدي الله، فإن في الركوع معنى أبلغ من القيام، وهذا معلوم للناس فيما بينهم حتى ان العرب كانوا يأنفون من الركوع كما قال الله تعالى : «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون»[٣٩].

فإذا ركعت فليصاحب ركوعك خشوع شامل يشارك فيه سمعك وبصرك ومخك وعظمك وكل ما استقلت به قدماك. ثم قلْ : سبحان ربي العظيم امتثالا لقول الله تعالى : «فسبح باسم ربك العظيم»[٤٠].

فإذا فرغت من أذكار الركوع ورفعت فقل وأنت رافع : سمع الله لمن حمده تُذكر بها نفسك لتعلم أن الله يسمعك عندما تحمده

---

٣٨) سورة الحج آية : ٧٧

٣٩) سورة المرسلات آية : ٤٨.

٤٠) سورة الواقعة آية : ٧٤.

فتقـول وقد استويت قائما، ربنا ولك الحمد. حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، أو : ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد. . .

تقول هذا موقنا أنها أذكارا وأدعية على حقيقتها فيما تذكره من عدد، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[٤١].

٨ - السجود :

فإذا سجدت فليكن سجودك آخر هيئة تظهر بها خضوعك لله واطراحك بين يديه وكنت بدأت بالوقوف بين يديه فكأن الوقوف لم يكن كافيا فركعت ثم رأيت أن الركوع لا يفي فخررت ساجدا.

وتقول : سبحان ربي الأعلى امتثالا لقول الله تعالى : «سبح اسم ربك الأعلى»[٤٢].

ومن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالالوهية، ومن عرف نفسه بالافتقار عرف ربه بالاستغناء، ومن عرف نفسه بالنقص عرف ربه بالكمال. فالأعلى يعني المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص تعالى عن الشبيه والنظير له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو أهل كل ثناء وإليه يرفع كل دعاء.

فإذا اجتمع في السجود الاعتراف بتقصير النفس ونقصها وكمال الرب وعلوه فليسأل العبد ما شاء فقمن أن يستجاب له، كما جاء في

---

٤١) انظر نيل الأوطار للشوكاني جـ ٣ ص ١٧٩ مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة.
٤٢) سورة الأعلى الآية : ١.

دعاء يونس عليه السلام : «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[٤٣].

وكما جاء في سيد الاستغفار : «اللهم أنت ربي لا اله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب الا أنت»[٤٤].

ولهذا لما سأل أبو بكر رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته علمه دعاء يجمع هذين المعنيين فقال له قل : «اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني انك أنت الغفور الرحيم»[٤٥].

والسجود من مواضع الخشوع والبكاء في الصلاة.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص في صلاته صلى الله عليه وسلم في الكسوف قال : «ثم نفخ في آخر سجوده فقال : أف أف، ثم قال : رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم، ألم تعدني ألا تعذبهم وهم يستغفرون». وفي رواية «حين ينفخ يبكي»[٤٦].

وإن مما يبعث على الخشوع عند الدعاء أن يكون متنوعا وأن يسأل به المصلي ما هو محتاج إليه فعلا، ولاشك أن حاجات المسلم

---

٤٣) سورة الأنبياء آية : ٨٧.

٤٤) رواه البخاري في الدعوات وأبو داوود في الآداب وابن ماجة في الدعاء ورواه أحمد في المسند.

٤٥) متفق عليه ومحله في السجود أو قبل السلام.

٤٦) رواه أبو داوود والرواية الثانية في مسند أحمد

تتجدد مع كل صلاة. فمنها الحاجات الطارئة والعابرة ومنها الحاجات الثابتة كأن يسأل الله تعالى قلبا خاشعا وعينا باكية وأن يسأله الجنة والنجاة من النار وأشباه ذلك.

فإذا نبع الدعاء من حاجة ملحة كان السجود مفزع المسلم وموضع طلباته واعترافاته واعتذراته.

جاء في سيرة رسول الله ﷺ انه إذا حز به أمر فزع الى الصلاة(٤٧).

وجاء في سيرة الامام ابن تيمية أنه إذا أشكلت عليه آية، أو التوى عليه علم عمد إلى بعض المساجد المهجورة، فقام يصلي، ويعفر وجهه بالتراب ويطيل السجود ويقول : يا معلم ابراهيم وسليمان علمني(٤٨).

الجلوس بين السجدتين

فإذا فرغت من السجود فارفع حتى تطمئن جالسا وادع بدعاء هذا الجلوس فإنه لم يغادر من خير الدنيا والآخرة شيئا إلا ذكره.

ثم تفعل في سجدتك الثانية مثل ما فعلت في الأولى واجعلهما متعادلتين وليكن طولهما أو توسطهما أو تخفيفهما تبعا للقراءة في القيام.

٩ - التشهد :

فإذا فرغت من السجدة الثانية فاجلس للتشهد :

وكلمات التشهد ثلاثة أجزاء :

---

٤٧) رواه أحمد في مسنده والنسائي في سننه.

٤٨) ترجمة ابن تيمية نقلا عن مقدمة التفسير الكبير لابن تيمية تحقيق عبد الرحمن عميرة.

- جزء فيه الثناء على الله بما هو أهله.
- جزء فيه الصلاة والسلام على رسوله ﷺ.
- وجزء فيه أدعية مختلفة للمصلي.

وذلك أدب الدعاء: ألا يَعْجَل السائل فيسأل حاجته قبل أن يثني على الله تعالى ويصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم[٤٩].

- التحيات لله: أي البقاء والملك لله.
- والصلوات لله: أي الدعوات له سبحانه.
- والطيبات لله: أي الكلام الطيب المتضمن للثناء عليه سبحانه.
- السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته: فإنه صلى الله عليه وسلم الواسطة الذي مثلنا جميعا في تسلم هذه الهدية الالهية في السماء.
- السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين: فإن الصلاة عبادة كل الانبياء والمسلم في تشهده ينسب نفسه الى عباد الله الصالحين في كل زمان فيُحيِّي نبيه بتحية السلام ثم يحيي نفسه وسائر المومنين.
- أشهد أن لا إله إلا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله.

وكما جاءت الشهادتان في الأذان والاقامة قبل الدخول في الصلاة تأتيان في هذا الدعاء الختامي الذي سمي بدعاء التشهد فإن كانت الصلاة آخر صلواته فقد كان من آخر كلامه فيها لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله.

---

٤٩) عن فضالة بن عبيد قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو في صلاته فلم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليدع بعد ما شاء» رواه الترمذي وصححه

ثم يصلي على رسول الله ﷺ ليجمع في تشهده بين الصلاة والسلام، فإن صيغ الصلاة الثابتة لم تذكر السلام لأنه مستقل وقد عرفه الصحابة ولذلك سألوا عن كيفية الصلاة عليه[50]، والله سبحانه قد أمر بالصلاة والسلام عليه، قال الله تعالى: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما»[51].

ثم يدعو بهؤلاء الدعوات الأربع :
اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال.

وقد أحصى هذا الدعاء أنواع الفتن : فتن الدنيا وفتن القبر وفتن الساعة وفتن الآخرة، والصلاة نفسها عون للمسلم على هذه الفتن فناسب أن يتعوذ بالله منها قبل أن يفرغ ويقوم من صلاته.

ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به ليعود بعد هذه الرحلة القدسية الى عالم الشهادة فيسلم.

١٠ - السلام :

والسلام تحية الاسلام عند القدوم وعند الانصراف، وهي في الصلاة تحليل وإقبال على ما بعدها.

فهذه التحية تحية إقبال يحيي بها المصلي من حوله من االملائكة والناس فإنه قد قدم عليهم من سفر وعمل وهي تحية وداع لما كان فيه من أعمال الصلاة، وفي هذه الجملة التي تحلل بها المصلي معنى السلام

---

٥٠) ثبت ذلك في الصحيحين.

٥١) سورة الأحزاب، آية : ٥٦.

والرحمة والله سبحانه هو السلام وهو الرحيم فمنه السلام ومنه الرحمة، ولاشك أن المصلي عندما يعود من صلاته يعود بسلام غامر يغمر قلبه وضميره، وأعضاءه وجوارحه. فهو في سلام تطمئن به نفسه وتسكن به خواطره وتهدأ به فزعاته يقوم من صلاته آمنا مطمئنا قد أرضى ربه وأرضى نفسه وتزود من صلاته لما بعدها إلى أن يحين وقت الأخرى.

ويعود من صلاته برحمة سابغة تحفه وتغشاه يكاد يلمسها بيده، ويراها بعينه، هذا مع علمه أن لله تعالى مئة رحمة تسعة وتسعون منها للآخرة.

ويعود من صلاته ببركة عليه وعلى من حوله، فخيرها وفضلها ليس له وحده بل لكل الأمة، انها بركات تعود على الأمة جمعاء من هذه الصلاة بما كان فيها من دعاء وبما كان فيها من تزكية وتربية هي للمصلي وللناس.

إن المعاني التي تتداعى في النفس عند أعمال الصلاة معاني جليلة حقيقة بأن تغلب سائر الخواطر والأفكار الأخرى التي تتوزع النفس وتتيه بها في الصلاة، وقد تركزت هذه المعاني في قولةٍ ننقلها عن حاتم الأصم يقول فيها جوابا على سؤال وُجِّه إليه على النحو التالي: «مر عصام بن يوسف رحمه الله بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه فقال: يا حاتم، تحسن تصلي؟ قال: نعم قال: كيف تصلي، قال حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام وأسلم بالنية، وأحفظها بالجهد إلى الموت. قال: تكلم فأنت تحسن تصلي»(٥٢)

٥٢) كتاب الخشوع في الصلاة لابن رجب ص ٢٧.

ونقل عنه في لفظ آخر أنه سئل عن صلاته فقال : «إذا حانت الصلاة اسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فاقعد فيه حتى تجمع جوارحي[٥٣]، ثم أقوم الى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي، أظنها آخر صلاتي، وأقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعا بتواضع، وأسجد سجودا بتخشع، وأقعد على الورك الأيسر، وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الابهام، واتبعها الاخلاص، ولا أدري أقبلت مني أم لا»[٥٤]

٥٣) هذا محمول على ما بعد ركعتي الوضوء أو تحية المسجد، فإنّ للمصلي بعد الفراغ منهما أن يستريح ـ إن شاء ـ قبل أن يقوم للفريضة إلا أن يكون في جماعة فيقوم للصلاة عندما تقام، أو يضيق الوقت فيعجل بالدخول فيها.

٥٤) فالجهد كله لأجل القبول وليس لاسقاط الفرض وإبراء الذمة على شرط الفقهاء.

الطريق الخامس
النظر في سير الخاشعين

عرف المسلمــون أسلوب التلقي المباشر في الأمـور العملية للدين، كما عرفوه في الأمور العلمية، فكان يقال : فلان تعلم الصلاة من فلان، وفلان من فلان الى رسول الله ﷺ، ويكون لهم في ذلك السند كما يكون لهم في القرآن والحديث والعلم.

واهتم العلماء بتدوين نماذج القدوة لتكون مثالا للجميع، تأسيا بالقرآن الكريم الذي عرض منها الكثير.

وفي مجال كهـذا تكشف الأمثلة الحية، مجالا واسعـا للاقتداء والاتبـاع والمنـافسـة والتشبه، فعندما ينظر المسلم في سير الخاشعين ويخـالطهم أحياءا بصحبتهم وبالصلاة خلفهم والتربي على أيديهم، وأمواتا بالنظر فيما أثر عنهم من خشوع وبكاء وخشية، يدعوه ذلك كله إلى محاولة اللحاق بهم وادراك بعض ما أدركوه من مراتب ودرجات.

وعندما نتحدث عن القدوة في أي خُلق من أخلاق الايمان، يأتي الانبياء في المقدمة، ومن بعدهم التابعون لهم بإحسان.

لقد كان الأنبياء أشد الناس خشية وخشوعا وبكاء، لا يلحقهم أحد في ذلك وقد شهد لهم الحق سبحانه بذلك فقال عقب حديث

مفصل عنهم : «انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين»[1].

وقد كان نبينا محمد ﷺ أولهم في ذلك، وقد مر بنا وصف صلاته عليه الصلاة والسلام، وهذا الفصل معقود لذكر امثلة من حياة الصحابة والتابعين وسلف الأمة الصالح، وكل ذلك قبس من صلاته ﷺ، فإن الدين علم وخلق، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتلقون عنه العلم والخلق جميعا وبتعبير القرآن الكريم «يعلمهم ويزكيهم»، ثم استمر سند هذا التعليم وهذه التزكية في أمته، فتلقت الأمة صلاته عليه الصلاة والسلام واقتدت بها وتفاوت المسلمون في درجة الاقتداء، فكان الصحابة رضي الله عنهم أخشع الأمة بعد نبيها، وتأمل هذا المثال هل يستطيع أحد مثله :

روى ابن اسحاق وأحمد عن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلا. وجاء زوجها وكان غائبا فحلف ألا ينتهي حتى يهريق دما في أصحاب محمد ﷺ فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلا فقال : مَنْ رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ قال : فانتدب رجلٌ من المهاجرين وآخر من الانصار فقالا : نحن يا رسول الله قال : فكونا بفم الشعب فقال : وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شِعب بالوادي فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الانصاري للمهاجر : أيَّ الليل تحب أن أكفيكه أوله أم آخره قال : بل اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام وقام الانصاري يصلي قال :

---

١) سورة الأنبياء آية : ٩٠.

وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم (حارسهم) قال : فرمى بسهم فوضعه فيه قال : فنزعه ووضعه فثبت قائما قال : ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه قال : فنزعه ووضعه وثبت قائما ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه قال : فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه فقال : اجلس فقد أُثبتَ (أي جرحت جرحا لا يمكن التحرك معه) قال : فوثب فلما رآهما الرَجل عرف أن قد نَذرا به (علما) فهرب، قال : ولما رأى المهاجري ما بالانصاري من الدماء قال : سبحان الله أفلا أهببتني أول ما رماك ؟ قال : كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أُنفذها، فلما تابع علي الرمي ركعتُ فأذنتك . وأيم الله لولا أن أُضيع ثغرا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أُنفذها[٢]. (أي الصلاة).

ويصعب علينا أن نعدد كل ما ورد عن صلاة الصحابة الكرام وخشوعهم، ويكفي أنهم كانوا يصلون خلف النبي صلى الله عليه وسلم ويأتمون به، وكانت صلاتهم بعده هي النسخة الأولى لصلاته عليه الصلاة والسلام.

أخرج الشيخان عن انس رضي الله عنه قال : «اني لا آلوا أن أصلي بكم كما كان رسول الله ﷺ يصلي بنا قال ثابت : كان انس يصنع شيئا لا أراكم تصنعونه، كان إذا رفع رأسه من الركوع انتصب قائما حتى يقول القائل قد نسي وإذا رفع رأسه من السجدة مكث حتى يقول القائل قد نسي».

---

٢) السيرة النبوية لابن هشام. جـ ٣ ص ٢٠٨ ط ١٩٥٥٢ مطبعة الحلبي بمصر.

كان أبو بكر رضي الله عنه رجلا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن. وقصة فتنته لصبيان قريش ونسائها في أول إسلامه معروفة، فقد كانوا يتسمعون قراءته وصلاته وهو داخل بيته لما كان فيها من تحزن وخشوع.

ولما مرض النبي ﷺ مرض وفاته قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام مكانك لم يملك نفسه من البكاء[3].

وذكر البحري عن عبد الله بن شداد قال: سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ: إنما أشكو بثي وحزني الى الله.

ووصف ضرار علي بن ابي طالب فكان مما قال: . . . كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة الى آخر ما قال.

وكان إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين فقال: جاء وقتُ أمانةٍ عَرَضَها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها.

وعن ابي رجاء العطاردي قال: «رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من الدموع»[4].

وعن عمرو بن دينار قال: رأيت ابن الزبير رحمه الله يصلي في الحِجر خافضا بصره فجاءه حجر قذافة[5] فذهب ببعض ثوبه فما انفلت[6].

---

٣) رواه البخاري.

٤) الزهد لابن حنبل ص ١٤٥ مكتبة انس بن مالك ـ مصر.

٥) اي قذيفة من المنجنيق الذي كان يرمي به جند الشام بقيادة الحجاج.

٦) الزهد ص ٢٠٠ وجذم الحائط أصله.

وعن يحيى بن وثـاب أن ابن الـزبـير كان يسجد حتى تنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جزم حائط[٧].

وعن هشام بن عروة قال : «قال لي محمد بن المنكدر : لو رأيت عبد الله بن الزبير قائما يصلي لقلت : شجرة تصفقها الرياح، وحجارة المنجنيق تقع ها هنا وها هنا ما يلتفت[٨].

فالـذي يتحـرك منه هي الثياب فقط تحركها الرياح، أما هو فثابت ساكن، وكان رضي الله عنه مضرب المثل في خشوع الصلاة.

وعن جعفر بن عمرو قال : كنا فئة من أبناء أصحاب النبي ﷺ قلنا : إن آباءنا قد سبقونا بالهجرة وصحبة النبي ﷺ فهلموا نجتهد في العبـادة لعلنـا ندرك فضائلهم منهم أو كما قال، قال : عبد الله بن الـزبير، ومحمد بن حذيفة، ومحمد بن ابي بكر، ومحمد بن طلحة، ومحمد بن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، قال : فاجتهدنا في العبادة بالليل والنهار وأدركنا تميما الداري شيخا، فما قمنا له ولا قعدنا في طول الصلاة[٩].

وعن ميمون بن حيان قال : ما رأيت مسلم بن يسار متلفتا في صلاته قط خفيفة ولا طويلة، لقد انهدمت ناحية المسجد ففزع أهل السوق لهدته وإنه لفي المسجد في صلاة فما التفت[١٠].

أين هذا من انشغالنا السريع بالطوارىء مما هو أقل من هذا

---

٧) الزهد ص ١٤٥.
٨) الزهد ص ٢٠٠.
٩) الزهد ص ٢٥١.
١٠) الاحياء جـ١ ص ١٧٢.

بكثير وربما ذهب العقل لأبسط طارىء وقد نخرج من الصلاة نفسها بسبب ذلك.

نعم يجوز أن ينصرف المسلم من صلاته هربا من خطر داهم ويكملها كيفما تيسر ويجوز أن يدفع الشر عن نفسه ولو أدى الى العمل الكثير، ولا ينافي الخشوع أن يحس بالمحيط من حوله ولكن المطلوب أن يبقى ذلك كله على هامش ما هو مستغرق فيه من العبادة.

كان الربيع بن خيثم (وهو تابعي) يقول : ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول ويقال لي(١).

يشغل نفسه بالذكر والقرآن قبل أن تشغله بشؤون الدنيا. وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين، وكان إذا صلى تحدث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله.

وقيل له ذات يوم : هل تحدثك نفسك في الصلاة بشيء قال : نعم بوقوفي بين يدي الله عز وجل ومنصرفي إلى إحدى الدارين. قيل : فهل تجد شيئا مما نجد من أمور الدنيا قال : لأن تختلف الأسنة فيّ أحب الي من أن أجد في صلاتي ما تجدون(١).

فهو لا ينكر وُجْدَانه لهذه الخواطر لكنه يدفعها بقوة كما يدفع أحدُنا عن نفسه الأسِنّة تريد قتله والقضاء عليه.

وروى أبو داوود والنسائي عن سعيد بن جبير قال : سمعت انس بن مالك يقول : ما صليت وراء أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى يعني عمر بن عبد العزيز، فحزرنا

(١) نفس المرجع والصفحة.

في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات .

وكان أبو جعفر الطبري صاحب التفسير (ت ٣١٠ هـ) مجودا في القراءة موصوفا بذلك، يقصده القراء البعداء من الناس للصلاة خلفه يسمعون قراءته وتجويده، قال ابو علي الطوماوي :

كنت أحمل القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد الى المسجد لصلاة التراويح فخرج ليلة من ليالي العشر الأواخر من داره واجتاز على مسجده فلم يدخله وأنا معه، وسار حتى انتهى إلى آخر سُوق العطش فوقف على باب مسجد محمد بن جرير، وابن جرير يقرأ سورة الرحمنٰ فاستمع قراءته طويلا ثم انصرف فقلت له : يا أستاذ، تركت الناس ينتظرونك وجئت تسمع قراءة هذا ؟ . قال : يا با علي : دع عنك هذا، ما ظننت أن الله خلق بشرا يحسن ان يقرأ هذه القراءة، أو كما قال[١٢].

وذكر ابن كثير في تاريخه ترجمة ابن القيم قال :
لاأعرف في زماننا هذا في هذا العالم أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا ينزع ولا يرجع عن ذلك[١٣] .

قلت : رحمة الله عليه كان يقرن العلم بالعمل، فقد دافع عن صفة صلاة رسول الله ﷺ وشرح معنى التخفيف المأمور به . في مختلف كتبه التي عرض فيها للصلاة .

١٢) من ترجمته في مقدمة الجزء ١ من تهذيب الاثار تحقيق د. ناصر بن سعد الرشيد وعبد القيوم عبد رب النبي طبع على نفقة الملك فهد مطابع الصفا مكة ١٤٠٣هـ.

١٣) ورد ذلك في ترجمته التي تتقدم بعض كتبه المطبوعة. انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٣٥.

الطريق السادس
قيام الليل

الخشوع في الصلاة، يحتاج الى مجاهدة وتدريب، وكل صلاة مناسبة صالحة للأخذ بما ذكرناه من طرق الخشوع وأسبابه، قصد التحقق به والتعود عليه. غير أن بعض الصلوات أنسب لذلك من بعض، وقيام الليل أحسن فرص هذا التدريب وهذه المجاهدة. ففي الأسحار يسكن الكون وتهدأ الحركة وينام الناس، فتصفو النفس وتأنس بالعبادة وتطمئن بالذكر والمناجاة.

وفضل القيام ليس في كونه مناسبة للخشوع والبكاء وطول القيام والركوع والسجود فحسب، ونحن نذكر بعض ما ورد في فضله عامة ثم نبين أنه طريق عملي لتطبيق النموذج الأمثل الذي سينسج المسلم على منواله بقية صلواته.

● من القرآن الكريم :

قال الله تعالى : «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهودا، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا»[1].

1) سورة الاسراء آية : ٧٨.

وقال عز وجل : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سُجَّدا وقياما»[2].

وقال عز من قائل : «إنما يومن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون. فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون»[3].

وقال سبحانه :

«إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون»[4].

ومن السنة :

عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يُقضى ثلث الليل الآخر، فيقول : من يدعوني فاستجيب له. ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له»[5]

وعن عمرو بن عبسة انه سمع رسول الله ﷺ يقول : «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل، فإن استطعت ان تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»[6].

2) سورة الفرقان آية : ٦٣.
3) سورة السجدة آية : ١٥.
4) سورة الذاريات آية : ١٦.
5) اخرجه البخاري ومالك وغيرهما.
6) رواه أبو داوود وغيره وقال الترمذي حسن صحيح.

وعـن ابي هريرة أو ابي سعـيد، قال رســول الله ﷺ : «من استيقظ من الليل وايقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات»[7].

وعن أبي هريرة ان النبي ﷺ قال : «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»[8].

ومن السيرة النبوية : عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : «قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له : قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال : أفلا أكون عبدا شكورا»[9].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ لا يدع قيام الليل وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعدا»[10].

وقـد كان قيام الليل دأب الصـالحين وروضة المحبين وشرف المومنين العابدين، فاهتم العلماء والمربون بذكر الأسباب المعينة عليه حتى لا يفوت المسلم فضله ومن ذلك :

أ ـ الاقلال من الطعام وخاصة في الليل والنوم على شيء من الجوع وخفة البطن.

ب ـ التبكير بالنوم وتعويضه إذا قصر بنوم الظهيرة.

ج ـ المحافظة على آداب النوم من وضوء وهيئة مسنونة وأدعية مأثورة.

---

٧) اخرجه أبو داوود والنسائي بسند صحيح.

٨) أخرجه مسلم.

٩) اخرجه الخمسة إلا أبا داوود.

١٠) رواه ابو داوود.

د ـ تبييت نية القيام واستعمال المنبه إذا كان وحده او التناوب على الايقاظ إذا كانوا جماعة.

هـ ـ أكل الحلال واجتناب الفواحش والآثام أثناء النهار فقد قيل: السيئة بعد السيئة عقاب السيئة والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة.

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد إني ابيت معافي وأحب قيام الليل وأعد طهوري فلماذا لا أقوم فقال: ذنوبك قيدتك.

و ـ الاكثار من ذكر الجنة والنار وملاقاة الله تعالى فقد قال بعض الصالحين: إذا ذكرتُ النار اشتد خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقي فلا أقدر أن أنام..

ز ـ الاكثار من النظر في فضل قيام الليل وما جاء فيه.

ح ـ أن يحمل نفسه عليه وإن وجد منها تثاقلا فقد كان السلف الصالح يكابدون الليل قبل أن يتنعموا به، قال الله عز وجل: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع»[11].

وليست العبرة في قيام الليل بكثرة الركعات فقد قال ابن عباس: ركعتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه، وجاء في الحديث: «من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه»[11].

---

(11) انظر ما كتبه ابو حامد في إحيائه عن هذه الأسباب فقد فصل الكلام عنها.

(11) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي.

وكان وتره صلى الله عليه وسلم في الليل إحدى عشرة ركعة[١٢]، إلا انه كان يطيل القيام ثم الركوع والسجود[١٣]؟

فاجعل قيامك في الليل مدرسة تتعلم فيها حلاوة المناجاة وطول القيام والسجود ولذة العبادة والتبتل ومعنى البكاء والخشية. وخذ من ذلك لبقية صلواتك.

---

١٢) رواه مسلم وأبو داوود والنسائي وابن ماجة ورواه مالك وأحمد وقد ورد الوتر بأقل من ذلك.

١٣) وقوله صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله، ومثله : من صام رمضان واتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر ومثله : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن فالنبي صلى الله عليه وسلم قال : «فكأنما» ولم يقل «قد»، ولذلك لا يبلغ المشبه به درجة المشبه، وبدون هذا التأويل لا يبقى معنى للأمر بقيام الليل والحث عليه» أفاده ابن القيم في الجواب الكافي ص ١٠٤.

خاتمة
قوة الخشوع من قوة الايمان

الصلاة مرآة لايمان المصلي فخشوعها الباطن مرآة لقلبه وخشوعها الظاهر مرآة لجوارحه. وقد ذكر الله سبحانه هذه الصلة المتبادلة بين الخشوع والايمان فقال عز وجل : «قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون»[1].

وقال سبحانه : «إنما المومنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا»[2].

فالخشوع من الايمان، والقلوب تجاه الايمان ثلاثة : قلب حي سليم وقلب مظلم ميت وقلب مضطرب مريض، فالأول قلب المومن والثاني قلب الكافر والثالث قلب المنافق.

وحياة القلب وسلامته في اشتغاله بالعلم النافع والعمل الصالح، ومرضه وموته في انصرافه الى الشبهات والشهوات، فإذا اشتغل القلب بالحق والهدى استنارت جوانبه وشع منه النور إلى كل ما يأتمر بأمره من جوارح فكان صاحبه على حق وهدى، وإذا اشتغل بالخوض واللعب أو بالظنون والأهواء اسود وأظلم وكان صاحبه مقطوع الصلة بآيات الله كالميت.

---

1) سورة المومنون آية : ١ و٢.

2) سورة الأنفال آية : ٢.

والايمان يزيد بأعمال الايمان وهي الطاعات (علما وعملا) وينقص بأعمال الكفر وهي المعاصي (شبهات وشهوات)، والقلب للغالب منهما، إن غلبت عليه أعمال الايمان لحق بالسليم وإن غلبت عليه أعمال الكفر لحق بالميت وإن بقي مترددا بينهما كان قلبا مريضا.

فعلى المسلم أن يتعاهد قلبه في جميع أحواله ليدفع عنه القسوة، فإنها اذا استبدت به منعته الخشوع قال الله تعالى: «ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم»[3].

وكما أن كل زيادة في الايمان تزيد في خشوع الصلاة، تؤثر كل صلاة خاشعة في هذا الايمان وتعطيه شحنة جديدة: فإن الصلاة من أعظم أعمال الايمان قال عز وجل: «ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا»[4].

إن تفاعل المسلم مع صلاته لا ينبغي أن ينفصل عن تفاعله مع بقية إسلامه علما وعبادة ودعوة، فالذي يعيش الاسلام ويعيش للاسلام ويحاول أن يستأنف حياة اسلامية في شخصه ومجتمعه تنفتح له آفاق من الخشوع عند الصلاة والذكر والتلاوة والتفكر لا ينفتح لغيره. فيجد لعبادته هذه حلاوة وتتحرك سفينته بكل مكوناتها من موقع إلى آخر وهي تشق طريقها الى حيث سترسو في أمان.

إن تشخيص ظاهرة ضعف الخشوع لا ينبغي أن يكون تشخيصا موضعيا بل يجب أن يَربط الظاهرة بأصلها وهو الايمان،

---

٣) سورة الحديد آية: ١٦.

٤) سورة الاسراء آية: ١٠٩.

والايمان خلاصة أعمال العبد في قلبه فليجعل المسلم ما بداخل صلاته عونا على ما بخارجها (إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) وليجعل ما بخارجها عونا على ما بداخلها (قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون).

وسيحتاج إلى وقت أطول بكثير من الذي احتاج إليه عندما انتصر على الشيطان في الجولة الأولى فأدخل الصلاة الى حياته وأثبتها، سيحتاج الى وقت أطول للانتصار عليه في الجولة الثانية وذلك بمنعه من استعمار أي جزء من هذه الصلاة بوساوسه الرديئة وخواطره الفاسدة.

سيستمر هذا التحدي الشيطاني مع المسلم ينادي عليه ويدعوه الى شحذ الهمة واستجماع القوة لكسب أكبر قدر من الجولات والتقدم في مراتب المصلين نحو المقدمة يقول ابن القيم رحمه الله[٥] : «والناس في الصلاة على مراتب خمسة :

إحداها : مرتبة الظالم لنفسه المفرط وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها.

الثاني : من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث : من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

٥) الوابل الصيب ص ٢٣.

الـرابـع : من إذا قام إلى الصـلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبَه مراعاةُ حدودها وحقوقها لئلا يضيع منها شيئا، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي واكمالها واتمامها.

الخامس : من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل ناظرا بقلبه إليه مراقبا له ممتلئا من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده وقد اضمحلت تلك الوساوس والخـطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض فالقسم الأول معاقب والثاني محاسب والثالث مكفر عنه والرابع مثاب والخامس مقرب».

فهرس